
الكتاب الذهبي
نادي القصة
المعذبون في الأرض
طه حسين

الكتاب القادم

الهدف الكبير

تأليف أمينة السعيد

سألت زوجي حين رأيتها في الأسبوع الماضي تجالس شخصاً تعيساً سمجاً مغروراً قرنت الشائعات اسمها به في العهد الأخير: ماذا دهاها، هذه المرأة، وأي متعة تجدها في هذا الرجل؟ .

أجاب ببروده المعهود: لقد تاهت وراء هدفها الكبير!

سلسلة شهرية تصدر



عن نادي القصة



١٠ قروش



سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة

في الخامس من كل شهر

رئيس التحرير : يوسف السباعي

المدير المسئول : حسن [illegible]

العدد ٦

ابريل ١٩٥٨ ـ رمضان ١٣٧٧ ـ نيسان ١٩٥٨

التحرير والادارة : ٥٢ شارع الجمهورية ـ القاهرة

ص . ب ٣٢٨ ـ القاهرة ت ٤٨٦٦٩

الاشتراكات : [illegible] قرشا عن سنة (١٢ عددا) في داخل اقليمي مصر والسودان [illegible] قرشا عن سنة في الاقطار العربية .

التوزيع : [illegible]

الكتاب الفضي



سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة

الناشر : الشركة العربية للطباعة والنشر

مقدمة

الى الذين يحرقهم الشوق الى العدل ،
والى الذين يؤرقهم الخوف من العدل ،
الى اولئـــك وهؤلاء جميعــا ،
اسوق هذا الحديث

***

الى الذين يجــدون ما لا ينفقون ،
والى الذين لا يجدون ما ينفقــون ،
يساق هذا الحديث

لا اجد لتصوير الحياة في مصر اثناء الاعوام الاخيرة من العهد الماضي ادق من هذين الامثالين اللذين يقرؤهما كل من تناول هــذا الكتاب ، فقد كان المصريون في تلك الاعوام القريبة البعيدة فريقين ، أحدهما يصور الكثرة الكثيرة البائسة التي تتحرق شوقا الى العدل مصبحة وممسية وفيما بين ذلك من آناء الليل واطراف النهار ، والآخر يصور القلة القليلة التي تشفق من العدل حين تستقبل ضوء النهار ، وتفزع من العدل حين تجنها ظلمة الليل . وكان فريق الكثرة ذاك لا يجد ما ينفق في رزق نفســه وفي رزق من يعول ، فيشقى بما يجد من الحرمان ، ويشقى اشد الشقاء وانكاه تكرا بما يجد عياله من الحرمان ، كانت عينــه بصيرة الى أبعد ما يبلغ البصر ، وكانت يده قصيرة الى ادنى ما يكون القصر . كان يرى الطيبات بين يديه فتتوق اليها نفســه ، وتتوق اليها نفوس بنيه وبناته ،

فاذا اراد أن يمد اليها يده أبت أن تمتد كأنما أصابها شلل ، او كأنها شدت الى سائر جسمه بأثقل الأغلال ، فكان يكظم غيظه ويصبر نفسه على مكروهها ، ويصبر أهله على البأساء والضراء ، وينتظر العدل الذى يبطئ عليه ليغلو فى الابطاء .

وكان يرى الآفات المختلفة تسلط على جسمه ونفسه ، وعلى أجسام عياله ونفوسهم ، ويهم أن يصلح مما تفسده تلك الآفات ، فيقصر به همه ، ويقعد به عزمه ، ويضطر الى أن يسلم نفسه وأهله لهذه الآفات تعبث بهم كما تريد ، قد وطن نفسه على الجهل لأن أباه لم يستطع تعليمه ، وهم أن يخرج عياله من الجهل الذى اضطر هو اليه ، فلم يجد الى ذلك سبيلا ، فرضى الجهل لبنيه كما رضيه لنفسه ، وانتظر العدل الذى يتيح لبنيه من المعرفة ، ما لم يتح له فى صباه ، ولكن العدل يبطئ عليه وعلى بنيه فيغلو فى الابطاء .

وكان يرى البؤس له خليطا بغيضا ، يصحبه اذا سعى فى الأرض ، ويصحبه اذا راح الى داره ، ويسكن معه ومع أسرته فى تلك الدار ان أتيحت له ولأسرته دار يأوون اليها ، فيصبر نفسه على هذا الخليط البغيض ، ويصبر أهله عليه، واثقا بأنه لن يستطيع منه فرارا ، لأنه لن يستطيع أن يبتغى نفقا فى الأرض او سلما فى السماء ، فينتظر العدل الذى سيخلصه ويخلص أهله من خليطه ذلك البغيض ، ولكن العدل يبطئ عليه فيغلو فى الابطاء .

ولم يكن البؤس يرضى أن يصحب هذا الفريق الا اذا تبعه أصحابه من الجوع والعرى والعلل والذل والهوان ، والكد الذى يضنى ولا يغنى ، والهم الذى يسوء وينوء ؛ وكان الناس من ذلك الفريق يبغضون أولئك الضيف أشد البغض ، ويضيقون بهم أشد الضيق ، ولكنهم لا يجدون الى الخلاص من ضيفهم الثقلاء سبيلا الا ان يأتى العدل فيلقى بينهم وبين

ضيفهم ستارا ؛ ولكن العدل كان بطيئا مسرفا فى البطء ، كأنه كان يمشى فى القيد ، لا يكاد يخطو خطوات قصارا حتى يجذبه من ورائه جاذب فيرده الى مكانه الذى استقر فيه بعيدا كل البعد عن الناس الذين يحبهم ويحبونه ، ويشتاق اليهم ويشتاقون اليه . كذلك كان ذلك الفريق طامحا الى العدل ، يحرقه طموحه دون أن يبلغه شيئا ؛ وما أكثر ما مضت الأجيال وليس لها من العدل حظ الا انتظارها له ، وتحرقها شوقا اليه .

فأما الفريق الثانى ، فريق تلك القلة القليلة ، فقد كان يرى بؤس الفريق الأول وشقاءه وعناءه ، وخضوعه للمحن والخطوب ، واذعانه للكوارث والنائبات ؛ فلا يحفل بما يرى ولا يلتفت اليه ، ولعله لم يكن يرى شيئا ولا يحس شيئا ، كان مشغولا بيسره عن عسر الناس من حوله ، وكان مشغولا بترفه عن شظف الناس من حوله ، وكان مثقلا بالغنى فلا يعنيه أن يثقل الناس بالفقر . كان نظره قصيرا كأدنى ما يكون القصر ، وكانت يده طويلة كأبعد ما يكون الطول ، كان يشتهى فيبلغ ما يشتهى حتى سئم شهواته ، وكان يريد فيبلغ ما يريد حتى مل اراداته ، وكان قلبه قد قسا فهو كالحجارة او أشد قسوة ، وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله ، وكان عقله قد حجب عما حوله او حجب عنه ما حوله ، فهو لا يرى ما كان يملأ البيئة التى يعيش فيها من النكد ، فان رأى منها شيئا أعرض ونأى بجانبه وأمعن فى الحمق والغرور ، فلم يفكر فيما كان ، ولم يفكر فيما يمكن أن يكون ، وانما عاش الساعة التى هو فيها كأن كل يوم من أيامه قد اقتطع من الزمان اقتطاعا فليس له أمس وليس له غد ، والبعد يشتد بينه وبين ذلك الفريق من البائسين المعذبين ، فهو لا يحسهم الا أن

يحتاج اليهم ، وهو اذا احتاج اليهم لم يرفق بهم ولم يعطف عليهم ، وانما ينزل اليهم الامر تنزيلا ان يشتقوا له من شقائهم سعادة ، ومن عنائهم راحة ، ومن بؤسهم نعيما ، وكانت الحكومات تقوم على ارضاء هذا الفريق المترف طوعا او كرها ، وربما حاول بعضها ان يختلس شيئا من الاصلاح اختلاسا فتنظر الى هذا الفريق من المعذبين في الارض نظرة فيها شيء من اشفاق وهم أن يمسهم بجناح من رحمة ، ولكنه لا يكاد يفعل حتى تزلزل به الارض ويحال بينه وبين الحكم . ويلقى عليه الدروس في اثر الدروس لعله يفهم ان غاية الحكم انما هي أن يزداد المترف ترفا ويمعن البائس في البؤس والشقاء .

في بعض ذلك العهد نشرت هذه الاحاديث متفرقة ، فلم تحفل بها الحكومة القائمة اذ ذاك ولم تلتفت اليها ، ولكنها جمعت ذات يوم في كتاب وارادت ان تصل الى ايدي القراء مجتمعة لتعظ المترف وتعزي المحروم ، وهنالك حفلت بها تلك الحكومة والتفتت اليها ووقفت عندها وقفة لم تطل ، وانما صدر فيها الامر بأن يحال بين هذا الكتاب وبين الناس ، وبأن تؤخذ نسخه من المطبعة الى حيث يصنع بها السلطان ما يشاء ، يحرقها او يخرقها او يغرقها او ما شاء الله من الوان العبث ما دامت لا تصل الى ايدي القراء !

وكذلك صودر هذا الكتاب فيما صودر من كتب اخرى كانت تريد ان تبصر المصريين بحقائق امورهم ، وان تعظ منهم الطغاة والبغاة ، وتعزي منهم البائسين واليائسين ، وتظرت مصر التي كانت ترى انها ملجأ الحرية في الشرق الادنى وانها قائدة الشعوب العربية الى الكرامة والعزة والاستقلال ، وانها آمنت من بغي الدولة التركية القديمة وطغيانها احرار سوريا ولبنان والعراق ، نظرت مصر هذه فاذا كتاب قد كتبه احد ابنائها يحال بينه وبين المواطنين ، واذا هو يسلك طريقه

الى لبنان فيطبع فيه وينشر ، ويذاع في اقطار البلاد العربية ، ثم يعود الى مصر فيدخلها خائفا يترقب ويستخفي به قراؤه استخفاء ، ثم يعاد طبعه ونشره في لبنان ، والقراء من المصريين يسمعون بذلك فينكرون فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجهروا بهذا النكير . .

عادت مصر الان الى مثل ما كانت عليه فرنسا اثناء القرن السابع عشر ، حين كان بعض كتابها يفرون بكتبهم لينشروها في هولندة مخافة البأس والبطش وطغيان الرقيب ، واحاول ان افهم مصدر هذا الخوف الذي اغرى تلك الحكومة بهذا الكتاب فحرمت عليه الحياة في مصر ، فلا اجد الى فهمه سبيلا ، فليس في الكتاب سياسة او شيء يشبه السياسة ، وليس في الكتاب تحريض على النظام الاجتماعي ينكره القانون ، وليس فيه اغراء بتلك المبادىء الهدامة كما كان يقال في ذلك الوقت ، وليس من فصوله فصل الا وقد نشر في مجلة او صحيفة سيارة فلم تنكره الحكومة ولم تضق به النيابة ولم يقدم كاتبه وناشره الى القضاء .

واذن فهو الخوف الذي يورط في البغي ، وهو الذعر الذي يدفع الى الطغيان ، وهو التنكيل بالكاتب من طريق التنكيل بكتابه ، وهو الاستجابة للهوى والانقياد للشهوة والحكم في الناس بالحب والبغض لا بالحق والعدل . ولست اعرف اشد حمقا ولا اجهل جهلا ولا اغبى غباء من الذين يصدرون في حكمهم عن الخوف والذعر ، وعن الشهوة والهوى ، وعن الحب والبغض ، فهم يورطون انفسهم في الوان من السخف لا تكاد تنقضي ، يحسبون ان قدرتهم تبلغ كل شيء ، مع انها قدرة انسانية محدودة لها مدى لا تستطيع ان تتجاوزه ، فهي تصادر كتابا في مصر وتظن انها حالت بينه وبين المصريين ، ثم لا تلبث ان تراه قد نشر في لبنان وعاد الى مصر فقرأه الناس

فيها ، وانتقض عليها كل ما ابرمت ، وفسد عليها كل ما دبرت ، واستبق الناس الى هذا الكتاب وتنافسوا فى الظفر به ، ولو قد خلت الحكومة بينهم وبينه لكان منهم القارئ له والمعرض عنه ، ويحسبون انهم يفهمون كل شىء ، وان عقولهم تنفذ الى ما لا تنفذ اليه عقول غيرهم من الناس ، وعقولهم مع ذلك عقول انسانية تفهم من الامر قليلا وتعيا عن فهم الكثير ، ولو قد فطنت عقولهم لكل ما كانت الصحف تنشر من الفصول ، ولكل ما كانت المطابع تذيع من الكتب ، لعطلوا الصحف كلها تعطيلا ، ولاغلقوا المطابع كلها اغلاقا . واى شىء ادل على ذلك من هذا الادب الجديد الذى انشأته حكومات الطغيان انشاء حين اضطرت الكتاب الى العدول عن الصراحة الى فنون من التعريض والتلميح ، ومن الاشارة والرمز ، حتى استقل هذا الادب بنفسه وتنافس القراء فيه تنافسا شديدا ، وجعلوا يقرأون ويؤولون ، ويناقش بعضهم بعضا فى التأويل والتحليل ، واستخراج المعانى الواضحة من الاشارات الغامضة . وانظر الى ما نشر صاحب هذا الكتاب من « جنة الشوك » و « جنة الحيوان » و « مرآة الضمير الحديث » و « احلام شهرزاد » ، فلن ترى فيها الا رمزا لمظاهر كنا نبغضها ولا نستطيع ان نتحدث عنها فى صراحة اثناء تلك الايام السود ، فكنا نؤثر الغموض على الوضوح ، والرمز والالغاز على التصريح ، والاشارة والتلميح على تسمية الاشياء باسمائها ، وكانت حكومات ذلك العهد ورقباؤها تقرأ فلا تفهم ، فتخلى بين الكتاب وما يكتبون ، وتخلى بين القراء وما يذاع فيهم من ذلك الادب الجديد .

وكذلك قهر الادب بغى الطغاة ، وافلت من رقابة الرقباء ، وسجل على الظالمين ظلمهم ، وعلى المفسدين آثامهم ، وانشأ بينه وبين القراء لغة جديدة يفهمها الادباء وقراؤهم ،

وفنا حديثا يتذوقه القراء ويحبونه ويؤثرونه على فنون التصريح والوضوح .

والادب انما شبيه بالنهر العظيم القوى الذى يندفع من ينابيعه فيشق مجراه حتى يصل الى البحر ، قاهرا ما يلقاه من الصعاب ، مقتحما ما يعترضه من العقاب ، محتالا فى شق طريقه الوانا من الحيل تنتهى به كلها الى غايته ، فظلم الظالمين وبطش اصحاب الطغيان وتحكم الرقباء ، كل اولئك اضعف من ان يقوم فى سبيل الادب والفن او يحول بينهما وبين القراء .

يالها ليالى قاتمة مظلمة كثيفة الاظلام ، لم يتح فيها للنجوم ان ترسل سهامها المشرقة ، ولم يتح فيها للقمر ان ينشر ضوءه الهادى الجميل ، وانما ازدحمت فيها الظلمات يركب بعضها بعضا ، وقد احتملنا اثقالها ونهضنا باعبائها نكاد نختنق ، ولكننا مع ذلك نرسل انفاسنا حارة محرقة كأنها شعل من لظى تضىء لقرائنا الطريق وتهديهم الى قصد السبيل .

وها هو الفجر الصادق قد اخذ يشير الى الظلمات المتراكبة المتراكمة باصبعه الوردية التى ذكرها الشعراء ، فتنهزم متفرقة كأنها لم تزدحم ولم يركب بعضها بعضا ، وما هى الا ايام واسابيع ، واذا الفجر الضئيل يمتد ويتسع ويملأ الارض نورا وجمالا وبرا وانصافا ، وهنالك لا يحتاج الادب الى حيلة ليعرب عن ذات نفسه ، ولا الى رمز يخفى به سر ضميره على الرقباء ، وانما يتحدث الى قرائه فى صراحة ووضوح ويسر ورضى ، يصور لهم حياة ناعمة وعيشا رغدا وعدلا واسعا ، بعد ان صور لهم جحيم البؤس والجور والشقاء .

صدق الله الظنون ، وحقق الآمال ، وجعل ثورتنا الموفقة منشئا للحق وسندا للعدل واداة للانصاف وسبيلا الى المساواة وبدل المعذبين فى الارض من عذابهم رحمة ، ومن شقائهم سعادة ، ومن بؤسهم نعيما .

١

صالح

« اذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئني ، فان فعلت ذلك فأنت ابني حقا » . قال الصبي وهو يبتسم لأمه التي كانت تحدثه هذا الحديث وهي تداعب خده : « فان لم أفعل فابن من أكون ؟ » .

هنالك وجمت أم الصبي شيئا ، وتضاحك من حولها بنوها وبناتها ، ولكنها لطمت خد الصبي لطمة خفيفة ظريفة وهي تقول : « انك لطويل اللسان كثير الخصام » ثم دست في يد الصبي قطعة من سكر واعادت عليه قولها : « اذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئني ، وان فعلت ذلك فلك مثلها قبل ان تنام » . قال الصبي وهو يقضم السكر قضما : « أما الآن فنعم » . ثم انطلق مسرعا يتبعه ضحك أمه ومن حولها بنوها وبناتها .

وكانت الدار قائمة قاعدة في ذلك المساء ، فقد ألم بها ضيف لهم خطر ومكانة في الاقليم ، وهم لم يقبلوا أصفار الأيدي ، وانما أقبلوا يحملون من الطرف والهدايا شيئا كثيرا . وكانت سيدة الدار حريصة دائما على الاحتفاء بالضيف ، مهتمة في ذلك المساء بالتكبيرة الأخيرة حين يرفع الشيخ بها صوته ليخرج بها من دعائه بعد صلاة المغرب . فقد كانت أصناف الطعام مهيأة تنتظر ان تحمل الى المائدة حين يفرغ الضيف من صلاتهم مع الشيخ . وكان الثريد وهو أول هذه

الأصناف قد هيء ، ولكن تهيئته لم تتم بعد ، فقد فت الخبز في طبق كبير ، واعد المرق ولم ايلاد الأرز ، وقطع الثوم قطعا يوشك ان تشبه الذرات . ولكن اعداد هذا الصنف يجب الا يتم الا في اللحظة الأخيرة حتى لا يشرب الخبز كل المرق ولا يذهب ريح الثوم والخل في الجو ، ولا يبرد الأرز فيفسد ما القي عليه من السمن . من اجل هذا كله لم يكن بد من ان يسمع الصبي لدعاء الشيخ حتى اذا رفع صوته بالتكبيرة الأخيرة أسرع الى امه فأنبأها ، واسرعت هي الى هذه الأخلاط من الخبز والمرق والثوم والخل والأرز فجمعتها في هذا الطبق الكبير الذي كان ينتظرها منذ حين . فاذا استفتح العشاء بهذا الصنف تبعته الأصناف الأخرى على مهل وريث ، فليس في الابطاء بها بأس ولا جناح ، ولكن الصبي لم ينبيء امه بشيء لأنه لم يسمع شيئا ، وانما شغل عن التكبيرة الأولى وعن التكبيرة الأخيرة بأمر ذي بال . وقد فرغ الشيخ وضيفه من صلاتهم وجلسوا يتحدثون ينتظرون ان يحمل اليهم العشاء . وجعل الشيخ يترقب هذا العشاء قلقا لأنه لم يتعود مثل هذا الابطاء حين يلم به الضيف . وقد هم غير مرة ان يضرب احدى يديه بالأخرى ليعلم اهل الدار ان الضيف ينتظرون ، ولكنه استحيا وكره ان يظن به تنبيه اهل الدار ، وان يظن بأهل الدار غفلة او اهمال ، فمضى في حديثه يرفع به صوته . ومرت من وراء الباب احدى بناته ، فسمعت الصوت يرتفع بالحديث ، واسرعت الى امها فأنبأتها بما لم ينبئها به الصبي ، وما هي الا لحظة حتى كان الضيف الى مائدتهم يأكلون ويطعمون .

وقد كان الصبي خالص النية صادق الرأي ، فقد اتخذ مرقبه في زاوية من فناء الدار ، هنالك حيث تجتمع قطع من الحديد كان يراها كنزه ، وكان يخلو اليها فينفق الساعة والساعات في جمعها وتفريقها وطرق بعضها ببعض ، يجد في

ذلك تسلية ولهوا ، ينفرد به مرة ويشاركه فيه اخته الصغيرة مرة أخرى ، وقد جلس في زاويته تلك أيام عديدة ، حتى اذا اتم التهام قطعة السكر ان يقبل الى قطع الحديد فيعبث بها في رفق مانحا الشيخ وضيفه احدى اذنيه ، مستمعا منتبها لصلاتهم ، حتى اذا سمع التكبيرة الأخيرة يرتفع بها صوت الشيخ أرسل الى أمه فالقى اليها النبأ ثم عاد الى لعبه فمضى فيه .

ولكنه لم يكد يستقر في زاويته ويمضي في قضم سكره حتى أحس يدا تمس كتفه ، ونظر فاذا رفيقه صالح ماثل امامه يداعب كتفه باحدى يديه ويقبض بيده الاخرى على طاقة من زهر الحقول يقدمها اليه باسما ، وقد نظر الصبي الى صالح فرأى ثوبه الممزق قد ظهر منه صدره أكثر مما ينبغي ، وقد انشق عن كتفه فظهرتا منه ناتئتين ، والثوب على ذلك رث قذر يظهر من جسم الصبي أكثر مما يخفي ، كأنه اسمال قد وصل بعضها ببعض وصلا ما ، وعلقت على هذا الجسم الضئيل الناحل تعليقا ما ، لتستر منه ما تستطيع ، وليقال ان صاحبه لا يمضي به متجردا عريانا . ثم رفع الصبي رأسه الى وجه صالح فرأى بؤسا شاحبا يشيع فيه ، ورأى ابتسامة فيها كثير من حزن وكثير من أمل ، ورأى عينين تدوران تنظران الى ما حولهما ، تنخفضان حينا الى هذا الحديد الملقى على الأرض ، وترتفعان حينا الى قطعة السكر في يد رفيقه ، وترتفعان بعد ذلك الى عناقيد الكرم هذه التى تتدلى على الجدران وتمتد على هذه العيدان التي نصبت لتحملها .

والصبي على ذلك كله باسط يده الى رفيقه بهذه الطاقة الساذجة الخشنة من زهر الحقول يقول له : « لم ارد ان اعود الى دارنا دون ان امر بك واحمل اليك هذه الأكمام التي لم تتفتح بعد . خذها اليك وضعها في اناء فيه شيء من ماء

وانتظر بها الصبح ، ثم اقبل عليها فستراها متفتحة عن زهر جميل طيب الرائحة » . لم يقل الصبي لصالح شيئا ، وانما أخذ منه زهراته وأعطاه ما بقي في يده من قطعة السكر ، وأشار اليه أن يجلس ويلعب معه بقطع الحديد . وقد أخذ صالح قطعة السكر فأطال النظر اليها ، والتحديق فيها ، وقربها من فمه ثم أبعدها عنه ، ثم نظر اليها نظرة قصيرة ، ثم دسها في فمه بين خده وأضراسه واستأنى بها لتذوب في رفق وليطول استمتاعه بذوقها الحلو . ثم جلس وأخذ يقلب مع رفيقه قطع الحديد . ثم لم يطل صمت الرفيقين ، وانما استأنفا حديثهما من الكتاب ومن الرفاق ومن الحقل ومن أهل القرية . وأنسي الصبي بهذا كله صلاة الشيخ والضيف والنبأ الذي كان يجب ان يحمله الى أمه ، ولم يرعه بعد وقت طويل أو قصير الا صوت اخته تدعوه من وراء الباب الى العشاء .

وقد فرغ الشيخ وأصحابه من طعامهم وفرغوا كذلك من الصلاة الآخرة وما يتبعها من دعاء ، ودارت عليهم قهوة الليل . وجمعت ربة الدار الصغار من بنيها وبناتها الى طعامهم ، وافتقدت صاحبنا ذلك الهذار فأرسلت اخته تلتمسه في مظانه .

ولما سمع صوت اخته تدعوه ابطأ في الاستجابة لها ، لأنه لم يكن يدري كيف يتخلص من رفيقه ، او لم يكن يحب ان يتخلص من رفيقه . ولكن صالحا قال له في صوت خافت حزين : « أجب ، انك تدعى الى العشاء » . قال الصبي لصالح : « وأنت هل تعشيت ؟ » قال صالح : « سأتعشى حين أبلغ الدار » . ونهض متثاقلا وأدبر يريد أن يخرج ، ولو استطاع لأقام ، ولكنه مضى . وعاد الصبي الى امه وفي يده تلك الزهرات ، فلما رأته انكرت نسيانه لما امرته به ، ولكنها سألته عن هذه الزهرات من حملهن اليه . قال الصبي وفي صوته اختلاجة خفيفة : حملهن الي صالح بن الحاج علي . قالت

امه : « ولم تعطه شيئا » ؟ قال الصبي : « اعطيته ما بقي لي من قطعة السكر » . قالت امه : « وما تراه يصنع بقطعة السكر ؟ اتراه يدفع بها عن نفسه الجوع ، الم تستبقه للعشاء ؟ » قال الصبي مضطربا : « هممت ولكني لم اجرؤ » . قالت امه : « فامض في اثره مسرعا حتى تعود به وحتى تتعشى معه » . وانطلق الصبي كانه السهم . ولم يكد يجاوز باب الدار حتى رفع صوته بنداء صاحبه ، ولكنه لم يحتج الى ان يعدو ، ولا الى ان يكرر الدعاء ، فقد كان صالح قائما امام الدار قد استند الى الحائط ومد بصره امامه وقدم احدى رجليه واخر الاخرى يريد ان يمضي وتنازعه نفسه الى البقاء . فلما سمع صوت رفيقه اجاب مستخذيا : « ها انذا ، ماذا تريد ؟ » قال الصبي : « اريد ان تبقى لنتعشى معا » . ولم يقل صالح شيئا ، وانما تحول الى رفيقه ومضى في اثره هادئا مطرقا كانه الكلب يتبع صاحبه اذا دعاه .

ولم يكد الصبي يغلق الباب من دونه حتى راى احدى اخواته قد وضعت في زاويته تلك كرسيا مستديرا وعليه صينية مستديرة مثله ، وقد كثرت على هذه الصينية الاطباق فيها من كل اصناف الطعام التي قدمت للضيف ، وابت اخت الصبي ان تشارك الاسرة في عشائها وآثرت ان تقوم على خدمة هذين الرفيقين . حتى اذا فرغا من طعامهما مضى صالح موفورا وعاد الصبي الى امه راضيا . فقالت له وهي تمسح راسه : « اذا زارك رفيق لك في وقت العشاء فلا ينبغي ان تدعه ينصرف دون ان تدعوه الى مشاركتك في الطعام » . ثم قالت له بعد صمت قصير : « هل تعلم ان صالحا انما حمل اليك هذه الزهرات ليتعشى ؟ » قال الصبي : « لا اعلم » . قالت امه : « لقد راى الاضياف حين اقبلوا ، وراى ما حملوا من الطرف والهدايا ، وعلم ان سيكون في الدار خير كثير هذا

المساء ، فاراد ان يصيب منه شيئا ، واتخذ ازهاره هذه علة يلم بها في الدار ليقدمها اليك » . قال الصبي : « لو رايته تراه وقد بدا منه صدره وظهره وكتفاه ! » قالت امه : « اذا خرجت من الكتاب غدا فاحمله على ان يصحبك ، فان عندي من ثيابك ما يكسوه » .

ثم انصرفت الى بنيها وبناتها تحدثهم عن الضيف وعن العشاء ، اللوم هذه لانها نسيت ان تحرك الارز حين القته في الماء وهو يضطرب من الغليان ، واوشك هذا اللون من الوان الطعام ان يفسد ويصبح عجينة متماسكة لا تصلح لشيء ، ومن حق الارز الا يلتئم ولا يتماسك وان تتفرق حباته وتختال ، وتثني على تلك لانها وفقت بالفالوذج فلم تتركه سائلا تفيض به الملاعق كانه الحساء ، ولم تجعله جامدا تقطعه الملاعق قطعا ولم تهمل تحريكه حتى تتخلله تلك العقد البغيضة التي لا تجعله سائغا ولا يسيرا ؛ وانما صنعته سواء سهلا لا يبلغ الافواه حتى تدعوه الحلوق ، وهو فيما بين ذلك خفيف حلو المذاق . وانها لتتحدث الى بناتها هذه الاحاديث التي كانت تعلمهن بها فنون الطهي والتي كان ابناؤها يسمعون لها فيغرقون في ضحك متصل ، واذا الصبي يقطع عليها حديثها ويسالها ما بال صالح لم يتعش في داره ؟ اجابت امه : « الم اقل لك انه احس ان سيكون عندنا خير كثير فاراد ان يصيب منه ؟ » قال الصبي : « فاني ارى الاضياف يلمون بجارنا كما يلمون بنا ، واعرف ان عند جارنا خيرا كثيرا فلا اسعى الى الزائر من فنائه ولا احاول ان اصيب مما تقدمهم » . قالت : « لانك لست في حاجة الى ذلك فلست محروما » . قال الصبي : « فصالح محروم الان ؟ » قالت امه متضاحكة ، وقد اخذ اخوته من حوله يضحكون للحاجته والحاجه : « لان اباك ميسر عليه في الرزق ، وقد قتر في الرزق على ابي صالح » . قال

الصبي : « ولماذا » قالت أمه : « إنك لمكثار » ثم التفتت إلى كبرى بناتها وهي تقول : « خذيه إلى مضجعه ، فقد تقدم الليل وآن له أن ينام » .

وأصبح الصبي غدا على كتابه كما تعود أن يفعل خمسة أيام في الأسبوع . وقد يخطر للقارئ أن يسألني عن هذا الصبي ما اسمه ؟ وما موطنه ؟ وما بيئته ؟ وما أسرته ؟ ومن عسى أن يكون ؟ ولكني أجيب القارئ إن خطرت له هذه الأسئلة كما كان الكاتب الفرنسي «ديديرو» يجيب قراءه حين يخيل إليه أنهم يسألونه أو يهمون أن يسألوه عن بعض الأمر من قصصه . أجيب القارئ بأنه يسرف على نفسه وعلي بهذه الأسئلة التي قد يكون الرد عليها مفيدا لتكون القصة متسقة حسنة البناء ملتئمة الأجزاء يأخذ بعضها برقاب بعض ، كما كان النقاد القدماء يقولون . ولكني لا أحاول أن أضع قصة فأخضعها لما ينبغي أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد ، فقد يجب لتستقيم القصة أن يحدد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث أو الذين يحدثون هذه الحوادث ، الذين تعرض لهم الخطوب أو الذين ينكرون هذه الخطوب .

لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن . ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول ، لأني لا أومن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يتدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو كلام يخطر لي فأمليه ثم أذيعه ، فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه ، ومن شاء أن يرضى عنه بعد فليرض مشكورا ، ومن شاء أن يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكورا أيضا . والمهم هو أن يخطر لي الكلام وأن

أمليه وأن أذيعه ، وأن يجد القارئ ما يشعره بأن له إرادة حرة تستطيع أن تغريه بالقراءة وأن تصده عنها . وأن يشعر القارئ أيضا بأن له ذوقا صافيا يستطيع أن يعرف في الأدب وأن ينكر ، وأن يقبل من الأدب أو يرفض ، وليس هذا كله بالشيء القليل . وما أحب أن يظن القارئ أني أتحكم فيه أو أتجنى عليه ، فأنا أبعد الناس من التحكم وأزهدهم في التجني ، وأشدهم للقارئ حبا وإكبارا . ولكني لا أحب أن يتحكم القارئ في ولا أن يتجنى علي ولا أن يخضعني لذوقه ، كما لا أحب أن أخضعه لذوقي . ويجب أن تكون الحرية هي الأساس الصحيح للصلة بين القارئ وبيني حين أكتب أنا ويقرأ هو . ولو أني استجبت لهذه الأسئلة فبينت موطن الصبي وبيئته وعرفت أسرته إلى القراء لطال بي الحديث أكثر مما أحب أن يطول . وليس في الحديث صبي واحد ، بل فيه صبيان : أحدهما صالح هذا الذي يتخذ زهرات الحقول وسيلة إلى عشاء يصيبه ، والآخر هو هذا الصبي الذي وجد عنده صالح هذا العشاء . ولأكن منصفا ، فقد يكون من حق القارئ أن أسمي له هذا الصبي الثاني ما دمت قد سميت له الصبي الأول ، ليكون الأمر ميسرا له فلا يضطرب بين صبي يعرف اسمه واسم أبيه وصبي آخر لا يعرف من أمره شيئا . والواقع أني حين أخذت في إملاء هذا الحديث لم أكن أعرف لهذا الصبي الثاني اسما . وما زلت أجهل اسمه إلى الآن . فلم يكن شخص هذا الصبي ولم يكن شخص صالح يعنيني ، وإنما كانت الأحداث التي حدثت للصبيين هي التي تعنيني . وأكبر الظن أن صالحا هذا لم يوجد قط لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، يوجد في القرى ويوجد في المدن ويوجد في كل مكان ، يملأ مصر نعمة وخيرا ، وهو مع ذلك يشعر الناس بأن مصر هي بلد البؤس والشقاء . وأنا أزعم أن قارئ هذا الحديث مهما يكن

لا يستطيع ان يقضي يوما من دهره او ساعة من يومه دون ان يرى صالحا هذا الذي لا يجد ما ينفق ، والذي يود ان تتاح له الوسيلة ليجد الغداء او العشاء . عند رفيقه ذلك الصبي الذي لم نجد له اسما الى الآن . فلنتفق على أن اسمه امين ، وعلى انه كان يختلف الى الكتاب مع قليل جدا من امثاله الذين يعيشون في شيء من اليسر ، وكثير جدا من اترابه الذين يستظلون بهذا الظل الوارف الجميل ، ظل البؤس والشقاء والحرمان وابتغاء الوسيلة للظفر بما يقيم الاود عند هذا الرفيق او ذاك .

لم يوجد صالح قط لانه يملأ المملكة المصرية . واذا اسرف الشيء في الوجود فهو غير موجود ، سواء ارضيت الفلسفة عن هذا الكلام ام لم ترض . اما امين فموجود من غير شك ، لاننا نراه ولا نكاد نرى غيره ، لانه عظيم الخطر ، فهو هذا الصبي الذي لا ينام جائعا اذا اقبل الليل ، ولا يغدو طاويا على المدرسة او على الكتاب ، ولا يطول انتظاره للغداء اذا آن وقت الغداء ، ولا ينبغي ان يطول انتظاره العشاء اذا اقبل الليل ، لان من حقه ان يتناول الطعام في ابانه ، وان يأخذ قسطه من النوم حتى لا تتعرض صحته الغالية لبعض ما يؤذيها . هذا الصبي او هذا الفتى الذي اتفقنا على ان اسمه امين موجود من غير شك ، لانه لا يملأ القرى ولا يملأ المدن ، وانما هو شخص ممتاز يمكن ان يحصى امثاله واترابه احصاء دقيقا في كل قرية وفي كل مدينة ، وهو من اجل ذلك موجود ، لان عدده محدود ، ولاننا نستطيع احصاءه واستقصاءه والدلالة عليه . وهنا يرفع رأسي القارىء وقد ظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة وبرقت عيناه بريق الانتصار والفوز وهو يسألني في صوت فاتر ساخر : لقد اردت ان تتجنب الاطالة بالاجابة على اسئلتنا ، فهل انت الا ممعن في الاطالة بهذا الكلام الكثير الذي لا يعني ولا يفيد ! معذرة يا سيدي القارىء الكريم ؟ بل ان هذا الكلام الكثير يغني كل الغناء

ويفيد كل الفائدة . فانت تلقى في كل يوم الف صالح وصالح دون ان تحس لواحد منهم خطرا او تعرف له وجودا . قد كثر لقاؤك لهم واتصلت معاشرتك اياهم حتى اصبحت الحياة بينهم شيئا يسيرا مألوفا لا يحفل به ولا يلتفت اليه ، وحتى اصبحت معاشرة البؤس والشقاء والحرمان شيئا تطمئن اليه كما تطمئن الى الصحة والعافية ، ولا تلتفت اليه كما انك لا تلتفت الى الهواء الذي تتنفسه والنور الذي تهتدي به . وترى امينا او امينين او امناء بين حين وحين فيملأ كل واحد منهم قلبك وعقلك ويشغل همك وعنايتك . فأيهما خير : ان الفتك الى صالح هذا البائس المسكين الذي ملأ مصر نعمة وخيرا وملأت مصر حياته شقاء وبؤسا ، ام ان احدثك عن امين وموطنه وبيئته واسرته لتستقيم القصة وتستوي رائعة بارعة ملائمة لاصول الفن التي رسمها النقاد ! اما انا فاوثر ان اتحدث الى قلبك وما يضطرب فيه من عاطفة وما يشيع فيه من شعور ، على ان اتحدث الى عقلك وذوقك وما يثيران في نفسك من تهالك على النقد وحب للاستطلاع .

اوثر ان اتحدث الى قلبك وان الفتك الى صالح هذا الذي وجد واسرف في الوجود ، حتى اعتقدنا او كدنا نعتقد انه غير موجود . ومن يدري ! لعلي حينما الفتك الى صالح انما الفتك الى نفسك . وما احب ان تغضب ولا ان تثور ، فما اردت ، وما ينبغي ان اريد الى ايذائك او التعريض بانك قد اتخذت في يوم من الايام زهرات الحقول وسيلة الى خير تصيبه كما فعل صالح ، وانما اردت ان اقول ان في حياة كل واحد منا نحن كثرة المصريين شيئا من صالح ، فصالح صورة البؤس والشقاء والحرمان . وما اقل المصريين الذين لا يصورون بؤسا ولا شقاء ولا حرمانا ! وليس البؤس مقصورا على هذه الصفة التي تأتي من الفقر وما يستتبعه الفقر من الجوع الذي يمزق

البطون والإعدام الذى يمزق الثياب ويظهر من ثناياها الصدور والظهور والأكتاف ، ولكن البؤس قد يتصل بأشياء أخرى ليست جوعا ولا اعداما ولكنها قد تكون شرا من الجوع والإعدام لأنها تتصل بالنفوس والقلوب . وإنى لأعرف قوما كثيرين تمتلىء أيديهم بالمال وتعظم حظوظهم من الثراء حتى يضيقوا به ، وهم مع ذلك يجدون بؤسا أى بؤس وشقاء أى شقاء ويتخذون زهرات الحقول أو هذا الزهر الذى تصنعه أيدى الحسان تصنيعا فى الحواضر والمدن وسيلة الى شىء يشبهونه عند من يكونون أقل منهم غنى وأضيق منهم ثراء .

مهما يكن من شىء فقد غدا الصبى الذى اتفقنا على أن اسمه أمين على كتابه كما تعود أن يفعل اذا كان الصباح ، فلقى أترابه وشاركهم فى الجد والهزل وفى الدرس واللعب . حاول أن يحفظ حصته من القرآن فانصرف عن هذا الحفظ الى مداعبة اللدات والأتراب . وكان قد نسى قصة صالح ولم يذكر الا أنه سيعود معه آخر النهار الى الدار ، ولكنه اضطر حين تقدم النهار الى أن يذكر صالحا فى كثير جدا من القلق والخوف ، ثم فى كثير جدا من الجزع والهلع ، ثم فى كثير جدا من الألم والحزن ؛ فقد سمع سيدنا الضرير يسأل عريفه البصير : هل تفقدت الأختام ؟ قال العريف : نعم . قال سيدنا : وهل سلمت لك كلها ؟ قال العريف : نعم الا ختم صالح بن الحاج على فانه قد ضاع ؛ وما أشد حاجة هذا الفتى الى التأديب ، فانه لا يطيع أمرا ولا يسمع كلاما ولا يخرج من الكتاب مع العصر الا لينغمس فى الماء .

وهنا يسأل القارىء — وما أكثر ما يسألنى القراء كما كانوا يسألون الكاتب الفرنسى الذى ذكرته آنفا — هنا يسأل القارىء عن هذه الأختام ما هى ؟ وماذا يمكن أن تكون ؟ ولابد من أن أجيبهم ، فأكثرهم من أبناء هذا الجيل الذين لم يذهبوا الى

الكتاب ولم يعرفوا قصة الأختام والماء ، وقليل منهم قد بعد عهده بالكتاب وما كان يحدث فيه من خطوب . كانت قصة الأختام هذه تمثل فى الكتاب كل عام حين يقدم الصيف ويشتد القيظ ويحب الصبية والفتيان أن يبردوا بماء النهر أو بماء القناة اذا خرجوا من الكتاب مع العصر أو اذا ذهبوا الى دورهم للغداء . وكانوا يسرعون الى نسيان القيظ والتبرد متى انغمسوا فى الماء وينصرفون الى العبث والسباحة والاستباق فى العوم . وكانت الأسر تشفق عليهم من ماء النهر ومن ماء القناة ، وتطلب الى سيدنا أن يتخذ ما يرى من وسائل التأديب والتقويم ليصدهم عن هذه الرياضة الخطرة .. وسيدنا قد اتخذ قطعة مستديرة من الخشب واحتفر فيها شيئا لا أدرى ما هو . فاذا كان الضحى يرتفع أقبل العريف بهذه القطعة من الخشب التى كانت تسمى الختم وغمسها فى مادة حمراء وختم بها أعضاد الصبية والفتيان الذين كان يظن بهم حب الرياضة فى ماء النهر أو ماء القناة . وكان زوال الآية التى يتركها الخاتم فى عضد الصبى أو الفتى دليلا على أنه قد خالف الأمر وقارب هذا الاثم العظيم . فلم يكن بد اذن من تفقد هذه الأختام فى كل يوم وتجديدها اذا محاها طول الوقت ، وعقاب الصبى أو الفتى اذا محيت آية الختم عن عضده قبل الأوان . ولست أدرى أيعرف القارىء أو لا يعرف أن العريف فى الكتاب قد كان رمز الرشوة والفساد ، كما أن سيدنا قد كان رمز السذاجة والقسوة . ولكن المحقق أن الصبية والفتيان كانوا يقترفون اثمهم هذا العظيم فى غير اكتراث ، ولا يكادون يخرجون من الكتاب حتى يسرعوا الى الماء ويلقوا أنفسهم فيه . وكانوا يشترون كذب العريف ورضاه بما يقدمون اليه من هذه الطرف اليسيرة التى يحملونها من بيوتهم ، يسرقونها العريف أحيانا ويصرفونها عن أنفسهم اليه دائما . ولم يكن صالح يحتمل

طرفا يسيرة ولا خطيرة لنفسه او للعريف ، وقد طال على
العريف ابطاء صالح عليه بالرشوة ، ولم يسأل نفسه الآن هذا
الابطاء من عجز أم كان من عمد ومكر . فأراد أن يؤدبه فأفشى
أمره لسيدنا ، ولو آثر الصدق لما خص صالحا بهذه الوشاية .
وكان أمين يعلم هذا حق العلم كما كان يعرفه غيره من أترابه ،
ولأمر ما امتلأ قلبه فجأة حبا لصالح وعطفا عليه ورحمة له ،
فلم يكد يسمع العريف البصير يغري به سيدنا الضرير حتى
صاح بأعلى صوته : ان العريف لم يقل لك الحق كله ، فليس
صالح وحده هو الذي فقد ختمه ، وانما فقده الأتراب جميعا
لأنهم يذهبون جميعا الى النهر أو الى القناة ، ولكنهم يرشون
العريف بما يحملون اليه من طرف ، فأما صالح فلا يحمل اليه
شيئا . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الشجاعة أن أديرت
الفلقة على ساقي صالح وعمل السوط في رجليه حتى دميتا ،
ثم أديرت الفلقة على ساق أمين ومس السوط رجليه مسا
خفيفا لم يدمهما ، ولكنه علم أمينا أن الشجاعة والصراحة وقول
الحق خصال لا تحسن في جميع المواطن .. ولو وقف الأمر
عند هذا الحد لهانت المحنة وسهل احتمالها ، ولكن الأتراب
والرفاق ازوروا عن صالح وأمين واتخذوهما عدوا ، وجعلوا
يكيدون لهما ويمكرون بهما ويذيقونهما من العنت فنونا وألوانا .
وقد عاد صالح مع أمين الى داره لا يكاد يحسن المشي على
رجليه ، ولكنه وجد عند رفيقه تسلية وتعزية . ولم تكد
أم أمين ترى هذا البائس المسكين حتى رحمته ورقت له
وآثرته ببعض الخير . ثم أهدت اليه ثوبا من ثياب ابنها ،
لم يكد صالح يراه حتى جن جنونه وخرج من طوره من الفرح ؛
ونسي الفلقة التي دارت على ساقيه والسوط الذي مزق
قدميه ، وأقسم ليسرعن الى الماء وليغسلن نفسه فيه ، وليضيعن
آية الختم الجديدة ، وليتعرضن لوشاية العريف ، ولغضب

سيدنا ، فما ينبغي أن يلبس هذا الثوب الجميل دون أن
يستحم ويزيل من جسمه آثار ذلك الثوب البالي القذر .
قالت له أم أمين : لا بأس عليك ، فسأطلب من سيدنا أن يعفيك
من الفلقة والسوط غدا . وانصرف الصبي فرحا مرحا محبورا .
وقال أمين لأمه : ألا تنبئينني الآن لماذا ضرب سيدنا صالحا
ضربا مبرحا حتى أدمى رجليه ، ولم يضربني أنا الا عبثا ؟
قالت : لأن صالحا أضاع الختم وخالف الأمر وانغمس في الماء
فكان ذنبه عظيما يستحق عقابا عظيما . فأما أنت فقد خرجت
عن حدود اللياقة حين قلت أمام أترابك ما قلت في العريف ،
فكنت خليقا أن تلقى عقابا يسيرا . قال الصبي : وأنا مع ذلك
لم أقل الا الحق . قالت أمه وهي تضحك : فإن الحق لا يقال
في جميع المواطن . قال الصبي : وكيف السبيل الى أن أعرف
المواطن التي يقال فيها الحق والمواطن التي يقال فيها الباطل ؟
قالت أمه وهي تضحك : ستعرف هذا كله اذا تقدمت بك
السن ، فأما الآن فانصرف الى حديدك هذا الذي في زاويتك
تلك والعب به ، وتحدث اليه حتى تدعى العشاء .

وذهب أمين الى حديده فلعب به ، وتحدث اليه وأحدث
من الضجيج والعجيج ما شاء الله أن يحدث ، ولكنه انصرف
عن حديده وزاويته وسعى الى أمه يسألها : ما بال صالح
لا يحمل الى العريف مثل ما يحمل اليه غيره من الطرف
والهدايا ؟ قالت أمه : لأن صالحا فقير معدم لا يجد ما يقوت
به نفسه فضلا عن أن يجد ما يهدي الى العريف . قال أمين :
ولماذا كان صالح فقيرا معدما لا يجد ما يقوت به نفسه وما يدفع
به شر العريف ؟ قالت أمه وقد أخذت تضيق بالحاحه : لقد
مدت الى ثرثرتك فامض لشأنك ولا تثقل علي . ولكن الصبي
لم يمض لشأنه وانما مضى في الالحاح على أمه ، فلم تتخلص
منه الا حين أظهرت له الغضب وأنذرته انذارا كاد يبكي له ،

ثم زحمته فوضعت في يده قطعة من النقد وهي تقول : اذهب فاشتر بهذا شيئا من الحلوى . قال الصبي مبتهجا : سأشترى بنصفه شيئا من الحلوى وسأدفع نصفه الآخر الى صالح ليؤديه الى العريف اذا كان الغد . ثم انحرف يعدو وقد ارتفع صوته بالغناء .

ولكن أمينا لم يدفع نصف القرش الى صالح ، لأن صالحا لم يذهب الى الكتاب من غده . وقد وقع في نفس الصبي شيء من القيظ ثم من الحزن حين التمس رفيقه فلم يجده ، وحين انتظر مقدمه فلم يقبل حتى ارتفع الضحى ، وحين استيقن أن صالحا لن يلم بالكتاب من يومه ، ثم لم يلبث أن تسلى عن صالح وغيبته بمداعبة الرفاق والأتراب . ثم لم يكد يفرغ من غدائه بين سيدنا الضرير وعريفه البصير حتى خرج ليشهد صلاة الظهر فيما زعم ، ولكنه اشترى بنصف القرش هذا السخف الذي يحبه الصبية ، وعبث مع أترابه حول المسجد ، وعاد معهم الى الكتاب وما يشك سيدنا وما يشك عريفه في أنه قد شهد الصلاة .

وانقطع صالح عن الكتاب يوما ويوما ، ثم أقبل ذات صباح كئيبا محزونا لا يكاد قده يستقيم من الضعف . ونظر أمين فاذا هو في ثوبه ذلك البالي القذر . وقد تلقى أمين رفيقه مبتسما به حفيا به مستنبئا عن غيبته تلك التي طالت . وهم صالح أن يجيب ، ولكن صوته احتبس في حلقه وجرت على خديه دموع منسجمة غزار ، فبهت أمين لأنه لم يعرف البكاء الصامت قط ، ولم يقدر أن الصبية يمكن أن يبكوا دون أن يمسهم سوط سيدنا أو دون أن يعنف بهم الآباء والأمهات ليؤدبوهم بالأيدي حينا وبالكلام أحيانا . ثم استبان لأمين من أمر رفيقه ما ملأ قلبه حزنا ودفعه الى كثير من الحيرة والشك

والاضطراب . فقد كان الثوب الذى أهدته أمه لرفيقه مصدر شقاء عظيم وشر ملح لهذا الرفيق البائس .

خرج صالح بثوبه الجديد مسرورا محبورا تكاد ساقاه تسبقان الريح عدوا ، ويكاد صوته المرتفع بالغناء يسكت الطير التي كانت ترقص على أغصان التوت وتنشر في الجو ألحانها العذاب ، وانغمس في القناة كأحسن ما تعلم أن ينغمس ، وعام في القناة كأحسن ما تعود أن يعوم ، فبذ الأتراب وتفوق على الرفاق ، وخرج من القناة فرحا مرحا مبتهجا مغتبطا ، وقد امتلأت نفسه رضا وامتلأ قلبه سعادة ، وفاض من نفسه الرضية وقلبه السعيد على جسمه جمال غريب لفت اليه أصحابه وأترابه ، وقال بعضهم لبعض : ما رأينا صالحا كما نراه اليوم ، حسن المنظر رائع الطلعة قد امتلأ قوة وحياة ونشاطا . ثم دخل في ثوبه الجديد ، وكاد السرور أن يدفعه الى شيء من الغرور ، ولكن الحياء اضطره الى بعض القصد وأمسكه في بعض الاعتدال ، فرضي عن نفسه في دخيلة ضميره ، وارتفعت اليه أبصار أصحابه بألوان من الغبطة والحسد ومن العطف والبغض .

وعاد مع مغرب الشمس الى داره يكاد يخطر في ثوبه الجديد وقد طوى ثوبه البالي القذر وحمله بين ذراعيه وجنبه متأذيا منكرا لاحتماله ، ولو استطاع لتركه في بعض الطريق ، ولكنه كان أذكى من ذلك قلبا وأصدق من ذلك فطنة ، فاحتمل ثوبه ذلك البالي الى امرأة أبيه لعلها تستطيع أن تصنع منه شيئا .

وما أشك في أن القارئ سيقف عند هذا الموضع من الحديث ، وسيسأل نفسه ولو استطاع لسألني أنا : ألم يكن من الخير أن نعرف من أول القصة أن صالحا قد فقد أمه وأنه كان يعيش يتيما ينعم بما يختلس من حب أبيه سرا ويشقى

جهرة بما يجب عليه من بغض هذه الضرة التى قامت مقام امه فى البيت ؟

ولست اشك فى ان القارىء سيضيف الى هذا السؤال ملاحظة فيها شىء من القسوة والسخرية والغيظ فيقول فى نفسه : لو ان الكاتب سلك فى قصته هذه الطرق المعهدة والسبل المعبدة التى رسمها النقاد للقصة لعرّف الينا صالحا فى أول حديثه ولانبأنا بموت امه وتزوج أبيه ، ولأعفانا من هذه المفاجأة التى لم تكن فى حاجة اليها ، ولكنى أعيد على القارىء ما قلته آنفا من انى لا اصنع قصة ، وانما اسوق حديثا ، واضيف الى ذلك ان الذين يسوقون الاحاديث لا يقدمون بين يديها هذه المقدمات التى يبينون فيها الوطن والبيئة والأسرة والزمان والمكان الى اخر هذا الكلام الكثير الفارغ الذى يلهج به النقاد ، ولو انى بدأت هذا الحديث برسم واضح دقيق لشخصية صالح وابيه ومن يتصل بصالح وابيه من الناس ، لضاق القراء بهذه المقدمات اشد الضيق وقال بعضهم : تجاوز حديث الطوفان وصل الى غايتك فلسنا من الغباء والغفلة بحيث نحتاج الى كل هذا التمهيد .

وبعد فمن أنبأ القارىء بأن صالحا يتيم وبان امه قد ماتت ؟ الشىء الذى لا اشك فيه ولا ينبغى ان يشك فيه القارىء هو ان صالحا لم يكن يتيما ، وأن امه لم تكن ميتة ، وانما كانت حية اكثر مما ينبغى أن يحيا الناس ، ان صح ان تكثر الحياة وتقل . وسواء رضى القارىء ام لم يرض فقد كانت ام صالح حية من غير شك ، لأنى انا اريد ذلك ، وليس يعنينى ما يريد غيرى من الناس ، فانا الذى اخترع صالحا من لا شىء ، لم آخذ صالحا من عرض الطريق ، لأن صالحا موجود ولأنه غير موجود ، موجود فى حقيقة الأمر ، لأننا نراه فى كل ساعة وفى كل مكان ، وغير موجود فى حقيقة الأمر ايضا لأنه يملأ

المدن والقرى ويسرف على نفسه وعلى الناس فى الوجود ، والشىء اذا زاد عن حده انقلب الى ضده ، كما يقال ، فانا الذى وحدى — كما كان يقال ايضا — اعرف من امر صالح ما لا يعرف غيرى من الناس ، واقرر ان امه لم تترك الدار لأنها ماتت ، وانما تركت الدار لأنها طلقت ، وانا استطيع ان اصنع بامه بعد هذا الطلاق ما اشاء : استطيع ان ادعها مطلقة تعمل خادما فى بعض الدور ، واستطيع ان اجد لها زوجا تعيش معه سعيدة موفورة ، واستطيع ان اسخرها لعمل من هذه الاعمال التى يعيش منها امثالها من البائسات ، فقد اسخرها لبيع الخضر ، وقد اسخرها لبيع الفاكهة ، وقد اكلفها ان تصنع الخبز فى بيوت الاغنياء واوساط الناس ، وقد اكلفها ان تغسل الثياب فى هذه البيوت ، وقد اجد لها ما اشاء من الاعمال غير هذا كله ، لأنى حر فيما احب ان اسوق الى القارىء من حديث ، ولأن القارىء مضطر الى ان يتلقى حديثى كما اسوقه اليه ، ثم هو حر بعد ذلك فى أن يقبله او يرفضه ، وفى ان يرضى عنه او يسخط عليه .

والواقع من الامر انى لا اكلف ام صالحٍ شيئا من هذه الاعمال التى ذكرتها ، ولا افرض عليها شيئا من هذه الخطط التى رسمتها ، لأنى على حرتى فى ان اصنع بها ما اشاء ، اوثر الأمانة فى رواية التاريخ ، وقد حدثنى التاريخ بأن خديجة ام صالح قد كانت شاذة الخلق سيئة العشرة ، وبأن الحاج عليا ابا صالح لم يكن ظالما ولا جائرا حين طلقها بعد ان ولدت له صالحا بعام أو عامين ، فقد كان هذا الرجل طيب القلب سليم النفس ، لا يحب شيئا كما يحب الدعة والهدوء ، وكانت امرأته خديجة ام صالح منكرة الخلق بغيضة العشرة كثيرة الكلام شديدة الصياح ، لا ترضى بشىء ولا ترضى عن شىء ، فاضطر هذا الرجل البائس الى فراقها ، واستبقى ابنه

صالحا فى كنفه ، وحاول أن يفرغ له ويقوم على تربيته فلم يستطع ، لأن خطوب الحياة تكلف أمثاله أن يعملوا ليعيشوا . ولم يكن من الممكن أن يعطل الرجل كسب القوت ولأن يفرغ لتربية ابنه ، وهو بعد ذلك رجل من الناس لا يستطيع الا أن يعيش كما يعيش الناس ، فاضطر الى أن يتخذ لنفسه امرأة ترعى له صالحا وتمنحه غيره من الولد ، واتخذت خديجة لنفسها زوجا يعينها على الحياة ويعوضها من صالح هذا الذى احتجزه أبوه لأنه اشترى القاضى بأرطال من البن ، وماذا تريد أن أصنع وقد كانت الحياة تجرى على هذا النحو فى ذلك العهد القديم .

وليس أدل على أن أبا صالح قد كان معذورا حين فارق امرأته ، من أن خديجة قد اضطرت زوجها الثانى الى أن يطلقها بعد أن وهبت له غلاما أسماه سعيدا ، وهو قد فارقها لتلك الأسباب التى فارقها من أجلها زوجها الأول ، فقد كانت سيئة العشرة بغيضة الخلق كثيرة الكلام مرتفعة الصياح لا ترضى بشىء ولا ترضى عن شىء . ولكن حظها فى هذا الطلاق الثانى كان حسنا أو سيئا لا أدرى ! فما أكثر ما تختلط أمور الناس على الأذكياء حتى لا يفرقوا بين الخير والشر ، فكيف بمن كان مثلى قليل الحظ من الذكاء لا يفرق بين السعادة والشقاء ؟ والشىء المحقق هو أن خديجة لم تكد تطلق حتى مات زوجها وترك لها سعيدا تربيه كما تشاء أو كما تستطيع ، ولم تربه كما شاءت أو كما استطاعت ، وانما ربته الطبيعة كما أحبت . وقد زهد الأزواج فى هذه المرأة ذات العشرة السيئة والخلق البغيض ، وثقلت الحياة على هذه المرأة ذات الحيلة الضيقة والعقل الكليل ، فباعت الفجل حينا والترمس حينا آخر ، ثم اختلط الأمر عليها فجنت جنونا هادئا رفيقا ، عطف عليها القلوب وأخاف منها الناس ، فسميت « خديجة

المغفلة » ، وعاشت من احسان المحسنين . وبينما كان ابنها سعيد ينمو فى ظل هذا الجنون الهادىء المخيف ، كان ابنها صالح ينشأ فى ظل هذه القسوة التى أظهرت حبا له وعطفا عليه ، ثم رزقت البنين والبنات فأظهرت بغضا له وضيقا به . وكذلك نشأ أحد الأخوين فى حماية البغض العاقل ، ونشأ الآخر فى رعاية الحب المجنون .

حدثنى أيها القارىء العزيز أكان من الخير أن أعرض عليك تفصيل هذا كله فى أول هذا الحديث فتضيق بى وبصالح وبأمين وبالسفر الذى يحمل اليك هذا الحديث ، أم كان الخير أن أذهب الى المذهب اليسير الذى اخترته ، وأن أحدثك بكل شىء حين يحين التحدث به اليك ؟ أنا أعرف أنك ستعاند وستمارى ، وستذهب فى عنادك ومرائك مذاهب مختلفة ، فأنت وما تشاء . أما أنا فقد ذهبت المذهب الذى اخترته ، وحدثتك بالأمر على النحو الذى أردته ، وانتهيت منذ حين الى أن صالحا قد استحم فى القناة ودخل فى ثوبه الجديد وعاد الى امرأة أبيه مسرورا بهذا الثوب الذى لبسه مهديا لثوبه القديم الذى ضمه بين ذراعيه وجنبه .

ولكن امرأة أبيه نظرت اليه من رأسه الى قدمه ، فرأت ثوبه الجديد ورضيت عنه ، ورأت ثوبه القديم وضاقت به ، ثم أدارت بصرها فى الحجرة ، فرأت ابنها وبنتها قد اتخذا ثوبين باليين كذلك الثوب القديم ، يبديان عن الكتفين كما يبديان عن الظهور والصدور ، ثم ردت النظر الى صالح فى ثوبه الجديد ، ثم أعادت النظر الى ابنيها فى ثوبيهما القديمين ، ثم ارتدت عيناها اليها وقد ارتسمت فى نفسها الخطة واضحة جلية ولكنها بشعة بغيضة ، فان هذا الثوب الجديد لم يخلق لصالح ، وانما خلق لابنها محمود . ولم يشرق الصبح من غد حتى كان صالح قد لقى من أبيه ومن امرأة أبيه نكرا ، فضرب ضربا مبرحا

مرض له اياما ، وجرد من ثوبه الجديد الجميل ورد الى ثوبه القديم البالى ، وعجز الفتى عن الذهاب الى الكتاب من غده ، واقام فى الدار ملقى فى زاوية من زواياها يعمل فى الاجراء ويمرض فى عنف ، حتى اذا استطاع أن يمشى على قدميه سعى الى الكتاب ليشقى فيه بغفى العريف وقسوة سيدنا ، وليتعم فيه بعشرة امين .

كذلك عرف امين قصة رفيقه البائس ، فلم يدر عقله الناشىء كيف يمضى فى هذه القصة . لو انه لم يتحدث الى امه عن ذلك الثوب البالى الذى كان صالح يلبسه لما اهدت امه الى صالح ذلك الثوب الجديد ، ولمضت امور صالح على ذلك البؤس الهادىء المطرد . فهو الذن قد اراد ان يحسن الى رفيقه فاساء اليه . أيلوم نفسه فى ذلك أم يلتمس لها المعاذير ؟ والحق انه لم يلم نفسه او يعذرها ، وانما فرغ لصاحبه يعزيه ويسليه ، وحدث نفسه بان امه الكريمة الرحيمة قد تجد بين ثيابه ثوبا آخر تكسو به رفيقه المسكين . ولكن القارىء يخطىء اشد الخطأ ان ظن أن الحياة تجرى دائما على هذا النحو المألوف من المنطق والملائم دائما ما ألف الناس من التفكير والتقدير ، فليست الحياة أقل متى ثورة على الأصول الموضوعة والقواعد المرسومة والخطط المدبرة ، وانما الحياة تمضى كما تريد هى لا كما يريد الناس . وقد راح صالح وامين من الكتاب مساء ذلك اليوم ، فلم يرعهما حين بلغا ذلك المكان الذى تمتد فيه الخطوط الحديدية من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال ، الا جماعة مزدحمة تتصايح ويدعو بعضها بعضا ، ولم يبلغا هذه الجماعة حتى رأيا منظرا راعهما وروعهما : جثة قد شطرت شطرين والقى عليها ثوب غليظ يستر بشاعتها عن العيون ، وامرأة قائمة تلطم وجهها وتضرب صدرها وتسفح دمعها وتنثر فى الفضاء ضحكا عريضا ، فاما الجثة فكانت

جثة سعيد أكلها القطار ، كما كان يقال فى تلك الايام ، واما المرأة فكانت خديجة تدفعها الغريزة الى الجزع ويدفعها الجنون الى الضحك ، واما صالح فنظر الى اخيه ونظر الى امه وهم أن يقف ولكنه آثر ان يمضى مع رفيقه كأنه لم ير شيئا . ولست ادرى ما صنع الرفيقان ، ولكنى اعلم ان ابا امين راح الى اهله حين تقدم الليل وهو يقول محزونا : لقد كانت القطر شرهة منذ اليوم ، اكل احدها سعيدا مع الظهر واكل الآخر صالحا مع الليل ، فقدت « خديجة المعترة » ابنيها فى يوم واحد . ثم التفت فرأى إبنه امينا مذعورا يكاد يتقد من البكاء ، فمسح على رأسه وقبل بين عينيه وقال له فى صوت رفيق : لن تغدو على الكتاب اذا كان الصبح ، لانك ستذهب الى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الاقليم .

قال امين بعد ان تقدمت به السن واصبح رجلا ذا خطر : ما زلت ارى تلك الجثة قد القى عليها ثوب غليظ ، ولكنى انظر الى وجهها فلا ارى وجه سعيد وانما ارى وجه صالح ، ومع ذلك فلم ار صالحا حين اكله القطار .

٢

قاسم

كان يسعى في ظلمة الليل القاتمة ، قد هدأ من حوله كل شيء ، وجثم على الكون سكون رهيب مرهق ، ولو قد رفع رأسه الى السماء لرأى فيها نقطاً من النور ضئيلة منتثرة ؛ ولكنه لم يكن يرفع رأسه الى السماء ، ولم يكن يطرق برأسه الى الأرض ، وانما كان يمضي امامه يمد بصره كأنما يريد أن يخترق به هذه الحجب الكثيفة من الظلام ، بل لم يكن يلتفت عن يمين ولا عن شمال ، وانما كان اشبه شيء بقطعة من الجماد قد صورت في صورة انسان ، ولو قد عدا او اسرع الخطو لجاز ان يشبه بسهم حي يشق هذه الظلمات المتكاثفة امامه ، ولكنه لم يكن يسرع الخطو ، كان يسعى هادئاً مطمئناً ؛ يتردد في سعيه كأنما تدفعه الى الامام قوة خفية رفيقة ؛ فهو يسعى سعياً متثاقلاً رفيقاً ، لا يتعجل شيئاً ولا يقف عند شيء وانما يمضي الى غايته كما يمضي الزمان الى غايته ، في اناة ومهل وحزم . ولو كان شاعراً او راوية للشعر أو على حظ من ثقافة ، لذكر تلك الأصبع الوردية التي تشير الى ظلمة الليل بأن تنجلي ، او لتصور سهماً ضئيلاً من الفضة النقية يمضي في هذه الظلمات المتكاثفة ، فتنهزم امامه هذه الظلمات متهالكة وتتساقط أمامه نجوم السماء في الأفق الغربي كأنما يدفع بعضها بعضاً الى الفرار ؛ ولكنه رأى نور الفجر يمد لسانه الدقيق وراء النهر ؛ وسمع صوتاً قد اقبل من ورائه في الجو ضئيلاً نحيلاً ماضياً امامه الى الشرق ، كأنما يريد أن يلقى

بالتحية والترحيب ذلك الضوء الضئيل . ثم رأى النور يمتد طولاً وينبسط عرضاً حتى احس كأن الجو كله قد اخذ يمتلىء نوراً وغناء ، فأما النور فكان يوقظ الأشياء وينشئها بمطالع الفجر ؛ واما الصوت فكان يوقظ الأحياء وينبئهم بأن الصلاة خير من النوم . ولم يذكره شيء من هذا كله بشعر ولا بنثر ؛ ولم يخرج من أعماق ذاكرته أدباً قديماً او حديثاً ، لأنه لم يكن من هذا كله في شيء ، ولم يكن يقدر ان شيئاً من هذا كله يمكن ان يوجد او يخطر لأحد على بال ؛ وكل ما في الأمر أن أخاه الشيخ الضرير قد قال له ذات يوم : انك تسعى في ظلمة الليل فتطيل السعي ، وتمتد بك الطريق مخوفة غير آمنة ، فاحفظ هذه الآية من القرآن وردّدها في قلبك أو في لسانك ؛ فإنها تؤمنك من خوف ، وتؤنسك من وحشة . ثم قرأ الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . فكان لا يخرج من بيته الحقير المتهالك ساعياً الى النهر في ظلمة الليل ، الا ترددت هذه الآية في صدره ترددا متصلاً ؛ فملأت ضميره أمناً وراحة وهدوءاً ؛ فإذا احس نبأة من قريب أو من بعيد ، تجاوزت هذه الآية الكريمة قلبه الى لسانه واندفع بها صوته الى الفضاء ؛ فأمن كل كيد وجنب كل مكروه .

وكان في تلك الليلة يمضي امامه ، تؤنس قلبه هذه الآية التي تتردد فيه . فلما رأى ما رأى ؛ وسمع ما سمع ؛ لم يخف شيئاً ؛ ولم يذكر شيئاً ؛ وانما كف عن التلاوة وسأل نفسه مسرعاً : أيمضي الى النهر امامه ؛ أم يرجع الى المسجد وراءه حتى اذا أدى الصلاة مضى الى النهر ؛ فاستخرج منه ما يسوقه الله اليه من رزق ! ولم يشك طويلاً حين ألقى على نفسه هذا السؤال ؛ وانما استدار الى المسجد فأدى صلاته لم يكلم احداً ولم يكلمه احد ؛ ثم استأنف سعيه الى النهر هادئاً مطمئناً

وحيدا ، لا يذكر شيئا ولا يكاد يفكر في شيء ، وانما هو قطعة جامدة قد صورت في صورة انسان تمضي امامها في اناة ومهل ، لا تنظر في السماء ولا تنظر في الارض ، ولا تلتفت الى يمين ولا الى شمال ، ولا تحس جلال الليل المنهزم ، ولا جمال الصبح المنتصر ، وانما خرجت من ذلك البيت الحقير وسعت الى ذلك النهر العظيم ، تلتمس فيه ما ساقه الله لها من رزق ، فلم يكن قاسم شاعرا ولا راوية شعر ، ولا محبا لجلال الليل وجمال النهار ، بل لم يخطر له قط أن لليل جلالا وأن للنهار جمالا ، فلم يكن قاسم الا رجلا جاهلا بائسا مريضا ، يلتمس في النهر ما يستعين به على أن يقيم أوده ويقوت امرأته امونة ، وابنته سكينة في بيته ذلك الحقير . ولولا أن قاسما كان يردد في صدره هذه الآية ، ويؤدي صلاة الفجر ان ادركته وهو في طريقه الى النهر ، ويفكر ايسر التفكير واهونه في بيع ما يخرج له من سمك النهر ليقوت نفسه واهله ، لولا ذلك لكان سعيه بين بيته وبين النهر شيئا غريزيا خالصا يشبه سعي النمل والنحل الى ارزاقها .

وقد كان قاسم عليلا قد انهكه المرض ، وكاد يسل جسمه سلا ، ومن اجل ذلك لم يكن يجد ولا يكد ولا يضطرب في شؤون الحياة كما يضطرب غيره من الناس ، وانما كان ينفق ايسر الجهد ليمسك الحياة على نفسه وعلى اسرته الصغيرة ، يسعى الى النهر بين حين وحين ، فان ساق الله الى شبكته شيئا من السمك باعه في غير مشقة ولا مساومة ، ثم عاد بما يغل ذلك عليه من نقد فاشترى في كثير من الفتور والسأم ما يصلح امره وامر زوجه وابنته ، ثم يعود بذلك كله الى البيت فيلقيه بين يدي امونة القاء ، ويسعى متخاذلا متهالكا الى حصير بال رث قد القي في ناحية من نواحي البيت ، فيمتد عليه ضئيلا نحيلا يكاد السقم يفنيه افناء . وما يزال على

حصيره ذاك لا ينطق كلمة ولا يفكر في شيء حتى تهيء امرأته ما يمكن أن تهيئه من الطعام فتضعه بين يديه ويصيب ثلاثتهم منه ما يصيبون . وما اكثر الليالي التي لم يكن قاسم ينهض فيها للصيد ! يقعد به الداء ، وتثقل عليه العلة فيستقر في مكانه مثبتا لا يأتي حركة ولا ينطق بكلمة ، وفي نفسه ما فيها من حسرة والم ان استطاعت نفسه أن تحس حسرة او الما ، وربما كلف نفسه فوق ما تطيق ، وحمل جسمه اكثر مما يحتمل ، ونهض وهو لا يقدر على النهوض ، وسعى وهو لا يقدر على السعي ، وبلغ النهر فوجده كريما بالقياس الى غيره من الناس ، بخيلا بالقياس اليه ، فعاد الى بيته مكدودا محزونا ، صفر اليدين ، والقى الى امرأته نظرة حزينة مريضة ، ومضى الى حصيره فامتد عليه لا يقول شيئا ولا يصنع شيئا .

هنالك كانت امونة تخرج متباطئة ، فتلم بهذه الدار او تلك تعين اهلها من امرهم على بعض ما يصنعون ، وتعود حين ينتصف النهار ، وقد حملت ما يمسك عليها وعلى زوجها وابنتها الحياة ويرد عنهم الجوع .

في ذلك الصباح خرج قاسم من المسجد بعد ان ادى الصلاة ، فسعى الى النهر مطمئن القلب هادئ النفس على ثغره ابتسامة ضئيلة شاحبة اريد ان تصور الراحة والرضا فلا تستطيع ان تصور الا حزنا هادئا فيه شيء من امل يسير . وقد صادف النهر كريما في ذلك اليوم ، وساق الله اليه رزقا حسنا فخرجت له شبكته بسمكة عظيمة لم يكد يحس ثقلها ولم يكد يرى طولها وعرضها حتى اضطرب في قلبه فرح ضئيل ، اتسعت له الابتسامة التي كانت مرتسمة على ثغره ، وذهبت عنها ما كان يظهر فيها من شحوب ، ولمع في عينيه الصغيرتين نور متهالك ضئيل ، ثم احس انه لن يستطيع ان يحمل صيده الى امد بعيد ، فاقام امامه ينظر اليه حينا والى النهر حينا ،

ويتلفت من حوله حينا ، ويرفع رأسه الى السماء بالشكر حينا
وينتظر أن يمر به بعض الأصحاء من شباب المدينة فيحمل له
هذا الصيد الى بيت العمدة ، فقد استقر في نفسه منذ رأى
هذا الصيد الرائع الجميل انه لا ينبغي أن يباع في السوق ،
وانما ينبغي أن يحمل الى بيت العمدة ، هذا الرجل الموسر الذي
يرفق به ويعطف عليه ويوصيه بين حين وحين ، بأن يحمل
الى داره ما قد يتاح له من صيد حسن .

وكانت فتاة من فتيات الدار قد نهضت مع الصبح قبل
أن تستيقظ الأسرة من نومها ، فبدأت بما تعودت أن تبدأ به
مع الصباح من كل يوم واخذت تكنس فناء الدار وترده الى
هيئته التي ينبغي أن يكون عليها ، فتصفف الكراسي في اماكنها ،
وتنفض التراب عن تلك الدكة الطويلة التي كانت تمتد في صدر
الفناء ، وتهيئها لمجلس سيدنا حين يقبل مطلع الشمس ليقرأ
السورة ويشرب القهوة ويتحدث اليها حديثا يطوله حينا
ويقصره حينا حسب ما يكون عليه من عجلة أو ريث . وان
الفتاة لفي ذلك واذا بالباب يطرق طرقا خفيفا ، فاذا فتحته
رأت قاسما حزينا تظهر على وجهه الشاحب آية الرضا والأمل
ومن ورائه غلام يحمل عنه شبكته . فحيا قاسم وحيا معه
الغلام ، ثم دخل الرجلان صامتين ووضعا صيدهما العظيم
على هذه الدكة في صدر الفناء . وقال قاسم في صوته الخافت
المريض : ما أشك في أن السيدة ستسر بهذا الصيد . وهم
صاحبه أن ينصرف ، ولكن الفتاة ألقت في يده شيئا تقبله
راضيا وولى مسرورا . وهم قاسم أن ينصرف ولكن الفتاة
أشارت اليه أن أتم ، ثم غابت عنه لحظة وعادت اليه بقليل
مما يؤكل وبقدح من القهوة فأكل وشرب ودعا . وهو في ذلك
واذا سيدنا الضرير يقبل كما تعود أن يقبل في كل صباح متكلفا
شيئا من العنف في دفع الباب أمامه رافعا صوته بدعاء ربه

الستار ، يريد أن ينبىء الأسرة بمقدمه ، حتى اذا اغلق الباب
وراءه في غير رفق سعى الى دكته في صدر الفناء ، ولكنه
لم يكد يجلس حتى وثب مرتاعا وجلا ، قد تملكه ذعر غريب
مثله لم يعرف كيف يظهر ولا في أي عضو من أعضائه يظهر ،
فوجهه يضطرب ، وجسمه يرتعد ، ويداه ترتعشان وتجولان
في الهواء ، وفمه مفتوح عن أسنان متحطمة وصوته يتردد في
حشرجة بين جوفه وشفتيه . ويرى قاسم وترى الفتاة معه
هذا المنظر ويشهدان هذا الذعر ، فيندفعان الى ضحك عال
متصل . ويثوب سيدنا الى نفسه وقد أمن بعد خوف وظن أن
فتيان الدار وفتياتها قد كادوا له الكيد ، حتى اذا علم آخر
الأمر أن أحدا من أهل الدار لم يهيىء له كيدا ، وانما أخطأ
قاسم فوضع هذه السمكة في غير موضعها ، وشغلت الفتاة
بالصيد والصائد عن مقدم سيدنا فلم تهيىء له مجلسه ،
تضاحك الشيخ الضرير من نفسه ومن قاسم ومن الفتاة ،
ثم جلس على كرسي وأبى أن يقرأ السورة حتى يشرب قهوة
قبل القراءة لا تغني عن قهوته تلك التي تعود أن يشربها
متى فرغ من الترتيل وقد شرب القهوتين ، ولكنه قال وهو
ينهض للانصراف : ان حكمة الله بالغة : لقد أضحكتما مني
وأضحكتماني من نفسي ، ولكن الله قد أراد بي خيرا ، فلن أتكلف
لأهلي طعاما منذ اليوم ، أبشري السيدة يا ابنتي بأن هذه السمكة
قد ملأت قلبي رعبا ، وبأني أنتظر منها نصيبي حين يتقدم
النهار ، وما أشك في أنكم ستتخذون منها ألوانا مختلفة ،
وما أرضى أن ترسلوا لي لونا واحدا وانما يجب أن أصيب
من هذه الألوان جميعا . وانصرف الشيخ الضرير راضيا عن
نفسه مستبشرا بهذا اليوم الذي يسر الله فيه رزقه حسنا
دون أن يسعى اليه . والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وقد استيقظت الأسرة كلها على ذعر الشيخ الضرير وعلى
تضاحك الصائد والفتاة وعلى قراءة القرآن ، فأخذت تستقبل

النهار كما تعودت أن تستقبله ، يعمل بعضها ويكسل بعضها ، والصائد في مكانه لا يبرحه لعله نسي نفسه ، أو لعله ينتظر ثمن صيده ، أو لعله قد أنس الى الدار لما أكل فيها وما شرب ، وما وجد من تسلية عن همه وسقمه . ومهما يكن من شيء فقد رآه صاحب الدار ، فقال له قولا حسنا ووضع في يده قروشا ، وبرح الصائد راضيا مغتبطا ، ولكنه لم يمض الى داره وانما استدار وذهب الى السوق .

والقارىء يستطيع أن يلاحظ أنا قد انتهينا الى مفرق من مفارق الطرق في هذا الحديث ، فأنا أستطيع أن أذهب معه الى السوق التي ذهب اليها قاسم الصياد . وأنا أستطيع أن أذهب الى هذه الدور ، التي يلم بها سيدنا كل صباح ليقرأ القرآن ، ويشرب فيها القهوة ويجاذب أهلها أطراف الحديث ، لا يضعف صوته ، ولا يضيق جوفه بما يلقى فيه من أقداح القهوة المرة ، ثم أذهب معه الى الكتاب الذي سينتهي اليه سيدنا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . وأنا أستطيع أن أترك قاسما يشتري في السوق ما يشاء ، وأن أترك سيدنا يطوف بالدور وينتهي الى الكتاب ، وأن أقيم في الدار لا أبرحها ، وانما أتبع السمكة الى حيث نقلت من الفناء واستقرت في مكانها من المطبخ بين الفرن وهذا الصف الطويل من الكوانين التي تختلف سعة وضيقا وارتفاعا وانخفاضا ، وأشهد أيدي النساء على هذه السمكة العظيمة ، ينظفنها ويقطعنها ويهيئنها لما يراد أن يتخذ منها من ألوان الطعام . ولكني لن أقيم في الدار ، ولن أتبع قاسما ، ولن أتبع سيدنا ، وانما سأخرج من الدار ، وسأنحرف الى الشمال فأسعى حينا ، ثم أنحرف الى الشمال مرة أخرى فأسعى قليلا ، ثم أنحرف الى يمين فأمضي أمامي خطوات ، ثم أجد في أقصى هذه الحارة الحقيرة حجرة حقيرة قد اتخذت من الطين ، لا من

الحجارة ولا من الطوب الأحمر ولا من اللبن ، وانما اتخذت من الطين الذي سويت قطع منه تسوية ما ، وخلط بها شيء من القش والتبن ، ورص بعضها الى بعض حتى ارتفعت في الجو ارتفاعا ما ، وأحاطت بقطعة متضائلة من الأرض ، ثم ألقي عليها شيء من سعف النخل فأصبح لها سقفا ، ثم نصب في فرجتها لوح ضيق قليل الطول من خشب رقيق فأصبح لها بابا ، فهذا البيت هو الذي أوثره على السوق وما يعرض فيها من السلع وما يدار فيها من التجارة ، وعلى الدور وما يكون فيها من حديث ، وعلى الكتاب وما يكون فيه من جد ولعب ومن سذاجة ومكر .

أوثر هذا البيت الحقير لأني أحب أن أجد فيه أمونة وابنتها سكينة وقد استقبلتا النهار باسمتين كما استقبلتا الليل باسمتين أحستا قاسما وهو ينهض متثاقلا يجر قدميه ، ويغلق الباب الضئيل من ورائه ، ويتحسس العصا رفيقا متأنيا في ظلمة الليل يرجو أن يبلغ النهر وأن يجد فيه رزقه ورزقهما . أحستا نهوضه في جوف الليل ، فلم تنهضا معه ولم تقولا له شيئا . ولم تنهضان ! وما عسى أن تفعلا ! ولم تقولان ! وما عسى أن تقولا ! مضى قاسم وأقاما ، واشتملهما الليل ساكتتين نائمتين كما اشتمله يقظان ساعيا . وأسفر الصباح لهما ساكتتين نائمتين كما أسفر له ساعيا الى الرزق . فأما هما فقد أيقظتا من نومهما حين أشرقت الشمس ، فجلست كل واحدة منهما في مكانها واجمة لا تدري ما تصنع ولا تعرف ما تقول ، وكلتا تنتظران قاسما لعله يعود اليهما بشيء من خير . وقد جرت العادة اذا طال عليهما الانتظار أن تصيبا شيئا من خبز جاف يعدان به الجوع عن نفسيهما أو يعدان به نفسيهما عن الجوع ، وربما خرجتا من البيت فتحدثتا الى الجارات .

وسكينة فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، فيها دعة ولين

وفيها سذاجة تشبه الغفلة ، وعلى وجهها مسحة من جمال
توشك أن تروق الناظرين لولا ما يبدو على الفتاة من الغمر ،
وفي جسمها تناسق وفي قدها اعتدال يظهران للناظر دون أن
يتكلف التماسا ، فالفتاة عارية أو كالعارية ، لا يستر جسمها
الا أسمال تتكشف هنا وهناك عن حسن اليم .

على أن وجومهما في ذلك الصباح لم يتصل الا قليلا . وقد
قالت أمونة لابنتها فجأة في صوت فاتر منكسر : ألم تنهضي
وتتركي البيت بعد أن خرج أبوك الى النهر بساعة قصيرة ؟
قالت الفتاة : بلى قد نهضت وخرجت من البيت ، ولكني عدت
بعد لحظة . قالت أمونة : فاني قدرت ذلك وانتظرت أن
تعودي بعد لحظة ، ولكن هذه اللحظة طالت واشتد طولها
حتى أشفقت عليك من بعض الشر ، وحتى هممت أن أخرج
في التماسك ولكني أكرهت نفسي على البقاء مخافة أن يفطن
الينا الجيران ، وما زلت أنتظرك وأنتظرك حتى أسفر الصبح ،
واذا أنت تقبلين مترفقة وتدخلين متلصصة وتندسين في
مضجعك حريصة على الا أحس مقدمك كما كنت حريصة
على الا أحس انسلالك من البيت ، فالى أين ذهبت ؟ وماذا
كنت تصنعين ؟ وقد سمعت سكينة حديث أمها مرفوعة
الرأس أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن انخفض رأسها فجأة ،
كأنما عجزت الأعصاب والعضلات أن تمسكه فانكب نحو
الأرض انكبابا ، ولبثت الفتاة صامتة لا تقول شيئا ، جامدة
لا تأتي حركة . وقد أعادت أمها عليها المسألة مرة ومرة ، فلم
تظفر منها برجع الحديث . هنالك تغيرت أمونة وظهر في
وجهها شيء من الجد لم يلبث أن استحال الى غضب منكر
عنيف ، وقالت لابنتها في صوت مكظوم : ستنبئيني الى أين
ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟ ثم انحرفت بنصفها الأعلى الى
يمين وتناولت عودا يابسا من سعف النخيل كانت تصطنعه في

تقليب الخبز والصابجة ، ثم استقبلت الفتاة ملوحة بهذا العود
اليابس ، وهي تقول لها في صوتها المكظوم : ستنبئيني أين
كنت وماذا كنت تصنعين ؟ .

ولم تقل الفتاة شيئا ، ولكن العود أخذ يقع ما بين كتفيها
في عنف شديد وثبت له الفتاة كأنما دفعها الى الوثوب لولب
في الأرض ، أو جذبها الى الوقوف سبب في السقف ، على أن
وقوفها لم يطل ، فقد أخذ العود يصيب من جسمها ما شاءت
المصادفة الغاشمة ، واذا الفتاة تجثو وقد جمعت يديها الى
وجهها وهي تتلوى من الألم ، تدافع شهيقا يريد أن ينطلق
ويكاد أن ينفجر منه حلقها . ثم يستأثر الغضب بأمونة ، فاذا
هي لم تبق امرأة وانما استحالت الى جنية ثائرة ، وقد ألقت
العود من يدها ووثبت بسرعة وخفة ، فكبت الفتاة على وجهها
وجمعت شعر البائسة بين يديها ، وجعلت تجذب الفتاة من
شعرها في غير رفق وتدفع بقدميها وجهها في غير نظام . وقد
انفجر صوت الفتاة عن صيحة منكرة ، فتلقي أمونة نفسها
على ابنتها وتضغط بيدها على فم الفتاة وتنبئها في صوتها
المكظوم دائما بأنه الموت اذا لم تكظم صوتها ولم تضبط نفسها ،
ولم تنبئها في هدوء وصدق الى أين ذهبت ، وماذا صنعت حين
انسلت من البيت في ظلمة الليل .

وقد ضاق صدر الفتاة لثقل ما حملت من جسم أمها
ولهذا الضغط المتصل على فمها ، فاستيقنت أو كادت تستيقن
أنه الموت ، ولكنها جاهدت جهادا عنيفا حتى تخلصت من ثقل
أمها واستوت جالسة ، وظهر في وجهها هدوء حازم عنيد ،
ودفعت يد أمها عن فمها وقالت في صوت مكظوم كصوت أمها
ولكنه ينم من التحدي والعناد : تريدين أن تعلمي الى أين
ذهبت وماذا كنت أصنع حين انسللت من البيت في ظلمة
الليل ؟ فاعلمي اذن أني لقيت زوج عمتي غريبيه من مزرعته ،

واقمت معه ما اقمت ، ثم رجعت حين كاد الصبح أن يسفر ، أعلمت الآن ما كنت تجهلين ؟ أراضية أنت بما عملت ؟

وجمت أمونة شيئا ثم قالت مستخذية : ومتى ألقى الفتيات أزواج عماتهن في جنح الليل ؟ إنك تلقينه متى شئت في وضح النهار . قالت الفتاة : ألقاه في وضح النهار وألقاه في ظلمة الليل ، ذلك شأنه وشأني ، وما أنت وذاك ؟ فإنه لا يعنيك من قريب ولا من بعيد . هنالك استأنف العود تمزيقه لجسم الفتاة ، ولكن الفتاة قالت لأمها بصوت تكلفت كظمه : ستكفين يدك عني أو استغيث بالجيران ! قالت أمونة وقد سقط العود من يدها : الجيران ! يا للفضيحة ! يا للعار ! ثم انحنى أعلاها على أسفلها وجعلت تنتحب غير جاهرة بالنحيب ، وظلت الفتاة في مكانها واجمة ساهمة كأنها قطعة من المرمر ، على أنها لم تلبث أن فرقت بين أجفانها فانهل على وجهها دمع غزير !

وفي القارىء حب للاستطلاع أقل ما يوصف به أنه يضايق الكاتب ويأخذ عليه الطريق ، ويضطره إلى الوقوف حين كان يؤثر المضي في كتابته ، أو يضطره إلى الاستطراد حين كان يفضل ألا يتجاوز الموضوع الذي يعرضه أو يقول فيه . والقارىء لا يكفيه ما أنبأته به من أن هذه الفتاة قد تغفلت أمها وانتهزت غيبة أبيها وانسلت من بيتها في ظلمة الليل ، واعترفت لأمها آخر الأمر وبعد ما ذاقت من عذاب بأنها خرجت أمس لا لرشد ، وبأن قد كان بينها وبين زوج عمتها إثم بغيض .

القارىء لا يكتفي بهذا ، وإنما يجب أن يعرف كيف نشأت هذه الصلة المنكرة بين فتاة في السابعة عشرة من عمرها ورجل قد جاوز الشباب وهو زوج عمتها . ولولا أني أرفق بالقارىء ولا أحب أن أشق عليه ولا أن أرده خائبا حين يحب الاستطلاع ، لمضيت في الحديث كما بدأته ، ولأبيت الانحراف إلى نشأة

هذه الصلة البغيضة لأن الحديث عنها بغيض ، ولكن لابد مما ليس منه بد ، فمن حق الكاتب أن يذهب ما شاء من المذاهب في كتابته ، ولكن من حق القارىء أيضا أن يفهم في وضوح وجلاء ما يقدم إليه الكاتب من المقالات والفصول . وقد عرف القارىء أن قد كان للقاسم أخ شيخ ضرير أقرأه آية كريمة من القرآن تؤمنه من خوف وتؤنسه من وحشة ، فقد ينبغي أن يعرف القارىء الآن أن قد كانت للقاسم أخت فاتنة لعوب ، خلبت عقول كثير من الشباب حين واتاها الحظ وابتسمت لها الدنيا واستقامت لها الأمور ، ثم تولت عنها الدنيا كما تتولى عن كثير من الناس ، وأصاب جسمها ذبول ، وألم بجمالها ذواء حين دخلت في الكهولة ودنت من الشيخوخة . وقد كانت خليقة أن تضطر إلى بؤس كبؤس أخيها الصياد أو أخيها الضرير ، لولا أنها صادفت الحاج محمودا ، وكان رجلا يقيم في طرف من أطراف المدينة ، فيه بقية من قوة وفضل من شباب ويملك قراريط من الأرض يستغلها في استنبات البقول ، وقد امتدت الأيام بالحاج محمود كما امتدت بتلك المرأة ، ثم أحس حاجة إلى شيء من الاستقامة ، فاصطنع الهدوء وتكلف التقوى وحافظ على الصلوات ، ثم سعى إلى الحج وعاد وعليه زي من وقار ومسحة من نقاء ، فاتخذ هذه المرأة له زوجا واستقر في حياة مطمئنة لا يظهر أحد منها على بأس . وكأن غريزته كانت أقوى من إرادته ، وكأن ميله إلى اللهو كان أقوى من طموحه إلى التقوى ، وكأن دنو امرأته من الشيخوخة أو دنو الشيخوخة من امرأته قد حول نفسه عن القناعة والرضا إلى المجانة والطمع ، فكان يمشي في المدينة زائغ الطرف يدير عينه يمينا وشمالا ، ويقصر بصره إلى هنا ويمد بصره إلى هنالك ، وكان كل شيء في تقلب وجهه واضطراب بصره يدل على أن في نفسه طموحا إلى الشر ونزوعا إليه لا يستحيي من الأمر . وكان قاسيا على أخي امرأته ، يرمقه في الازدراء ويتحدث

فته في استخفاف ، ولا يمد اليه يدا بالمعونة ولا يظهر اشفاقا
عليه مما كان يبهظه من الفقر والبؤس والداء ، ولكنه رأى
ابنة هذا الرجل فتاة كأنها تستقبل الحياة في قوة وجمال وفي
بؤس وشقاء أيضا ، فلم يرق لبؤسها ولم يرحم شقاءها ،
وانما اشتهى جمالها وطمع في محاسنها ، وابتغى اليها الوسائل .
وما أكثر وسائل الأغنياء الذين يبطرهم الشقاء ! وقد رأى هذه
الفتاة الجميلة البائسة تنظر ذات يوم نظرة فيها كثير جدا من
الأمل الى رجل من هؤلاء الباعة الذين كانوا يطوفون في المدن
والقرى يحملون هذه السخافات التي تطمح اليها نفوس البائسين
من أهل المدن والقرى ، يحملون حقيبة فيها هذا الصمغ الذي
يمضغ في الأفواه ويسميه أهل القرى « لبانا » ويسميه
المترفون من أهل المدن « لادنا » ، ويحملون حقيبة أخرى فيها
صنوف من الخرز وضروب من الخواتم والأساور قد اتخذت
من المعدن الرخيص . ونساء الريف يكلفن بهذه السخافات ،
يتخذن من الخرز عقودا ، ويزين أيديهن ومرافقهن بهذه
الخواتم والأساور ، ويتحلين بمضغ اللبان يديرنه في أفواههن
ويحدثن في مضغه بين حين وحين صوتا يفتن به الرجال
الكهلين والشباب الناشئين . وقد رأى الحاج محمود تلك
الفتاة البائسة ذات الجمال البارع وقد تعلقت نفسها بشيء
من هذه السخافات بين يدي رجل من هؤلاء الباعة قد أطاف
به النساء والفتيات من أهل المدينة يأخذون منه سخفه الرخيص
ويدفعن اليه نقدهن القليل ، ومسكينة تنظر وتشتهي ولكنها
لا تستطيع أن تأخذ شيئا ، لأنها لا تستطيع أن تدفع شيئا ،
فرق الحاج محمود لهذه الفتاة ، أو مال قلبه الى هذه الفتاة ،
فاشترى من سقط المتاع هذا شيئا قليلا أدى له ثمنا ضئيلا
وملأ قلب الفتاة به فرحا وأنعم به نفسها سرورا ، وأفاض
على وجهها بهجة زادتها حسنا الى حسن وروعة الى روعة .
ومنذ ذلك اليوم وقع في قلب الحاج محمود لهذه الفتاة الغافلة

حب أليم . ومنذ ذلك اليوم جعل الحاج محمود يسعى بالخير
بين حين وحين الى هذه الأسرة البائسة ، بدأ بالحديث الرقيق ،
وثنى بالمعونة اليسيرة ، واختص الفتاة بعطف كاد يتصل لولا
أن الحاج محمود كان يحتاط ويتحفظ ويخشى الريبة . وكان
قاسم وامرأته يتلقيان هذا الود الجديد في تردد بين ما يحمل
اليهما من خير وما يثير في نفسيهما بعض الشك ، ولكن الحاجة
كانت أقوى من الحيطة ، والشيء الذي ليس فيه شك هو
أن الفتاة قد اطمأنت الى هذا الرجل ووثقت به ، وتعلقت
نفسها بما كان يطرفها به بين حين وحين من هذه الطيبات
المتواضعة فأكثرت التردد على دار عمتها . ثم اتصلت المودة
بينها وبين هذا الرجل الذي كانت تسميه عمها .

وهنا ليس يحتاج القارىء فيما أظن الى أن أمضي به في
هذا الحديث البغيض الى غايته ، فهو يستطيع أن يبلغها
وحده . وأحسبه قد أطال الانتظار لقاسم هذا الذي ذهب الى
السوق وفي يده أو في جيبه قروش الصدقة . فلينظر اليه أن
شاء عائدا من السوق قد امتلأت يداه بالخير وظهر على وجهه
الشاحب حبور كئيب ، وأقبل يسعى الى بيته الحقير متباطئا
ثقيل الخطو ، وفي نفسه شيء من رضا ، فسيطعم امرأته وابنته
ما لم تعودا أن تصيبا منه الا نادرا حين يكرم الدهر أو حين
يتصدق الموسرون . ومهما يبلغ الفقر بالناس ، ومهما يثقل
عليهم البؤس ، ومهما يسيء اليهم الضيق ، فان في فطرتهم
شيئا من كرامة تحملهم على أن يجدوا حين يأكلون مما كسبت
أيديهم لذة لا يجدونها حين يأكلون مما يساق اليهم دون أن
يكسبوه أو يحتالوا فيه ، فقد كان قاسم في تلك الساعة يشعر
بشيء من هذه الكرامة ، ويريد أن يعتد بنفسه ، لولا أنه كان
أشد بؤسا وأضأل وأدنى الى الذلة من هذا الاعتداد ، وهو على
ذلك كان يسعى متباطئا ثقيل الخطو ، ولم يكن يسوءه أن

يلحظ الجيران كلما دنا من بيته ، وان يروا ما يحمل من طيبات السوق ، وان يقولوا في انفسهم : لقد حسن جد قاسم منذ اليوم ، وسينعم مع امرأته وابنته بطعام لذيذ . يقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الرفق والاشفاق ، ويقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الحسد والغيظ . ويرى قاسم هذا كله في لحظ العيون واضطراب الوجوه ، ويكاد قاسم يجد في نفسه الرضا عن رفق الرفيق وحسد الحسود ، ولكنه يبلغ البيت ويدفع الباب الدقيق الضئيل ويخطو وقد جعل الدم يصاعد الى وجهه ، وجعلت عيناه تبرقان وشفتاه تنفرجان ، وهم صوته الخافت ان يبشر اهله بالخير ، وهمت يداه المتهالكتان ان تلقيا بين يدى زوجه ما حملتا اليها من طعام ، وهم ان يداعبها في بعض الحزن . ولكنه يخطو وينظر ، فاذا امرأة تساقط دموعها غزارا وهي جامدة هامدة ، واذا فتاة تنتحب ، وتدافع شهيقا لا تحب ان يسمع ، واذا قاسم واجم اول الامر ، ثم سائل بعد ذلك ، ثم مكرر المسألة ، واذا امرأته ترد عليه في صوت مختنق متقطع بكلمات تقع من قلبه البائس موقع الجمر ، واذا يداه تسترخيان ، واذا هذا الخير الذى كان يحمله حفيا به حريصا عليه ، يسقط الى الارض في غير نظام ، واذا عيناه تنطفئان ، واذا شفتاه تلتقيان ثم تحتدان ، واذا هو يسعى الى حصيره ذلك البالى فيجلس عليه متهالكا ، ثم يعتمد وقد نهكه ما اصاب جسمه النحيل وقلبه العليل الضئيل من جهد ، واذا امرأته تسمع صوتا خافتا يأتى من بعيد جدا ، وهو يقول : لو رزقنا الله مكانها غلاما لم نتعرض لهذا الخزى ، ثم يعيد : لهذا الخزى . ثم ينقطع الصوت حينا ثم يعود اشد خفوتا واعظم بعدا وهو يقول : ما ينبغى للفقراء ان يلدوا البنات ! ثم ينقطع صوته فلا تسمعه امرأته سائر النهار ، ليس هو نائما وليس يقظان ، وانما هو شيء بين ذلك .

وقد همت حين تقدم النهار ان تنظر الى هذا الطعام وتحاول تهيئته ، ولكنها تنظر اليه ثم تعرض عنه ، وتظل في مكانها هامدة جامدة ، تنهل دموعها حين تجود عيناها بالدموع ، وتنقطع دموعها حين تجمد عيناها من البكاء . والفتاة ملقاة في مكانها لا هي بالحية ولا بالميتة ، وانما تأخذها رعدة بين حين وحين لم يشتمل عليها الخمول والجمود . ولم ير الجيران في ذلك اليوم امولة تخرج لالتماس الحطب ، ولم ير الجيران في ذلك اليوم دخانا من ذلك البيت ، ولم يشم الجيران في ذلك اليوم رائحة الطعام الذى تنضجه النار ، وقد كانوا مع ذلك يتوقعون هذا كله حين رأوا قاسما يروح الى داره وقد امتلأت يداه بالخير .

وسعت الشمس الى مغربها متباطئة ، واقبلت ظلمة الليل فنشرت ارديتها السود على كل شيء ، وجثم الليل على المدينة ثقيلا مرهقا ، فانسل الناس الى مضاجعهم وفرش الهدوء والصمت على كل شيء ، وانتثرت في السماء نقط ضئيلة من النور ، ونهض من فراش قاسم شخص ضئيل يوشك ان يكون شبحا ، فانسل من البيت لم يلتفت الى احد ولم يلتفت اليه احد ، ومضى نفسه في ظلمة الليل وجعل يمضى فيها متباطئا وان اراد الاسراع ، متثاقلا وان كان في نفسه خفيفا . مضى امامه لا يرفع رأسه الى السماء ، ولا يلتفت الى يمين ولا الى شمال ، فقد ثقلت ظلمة الليل الى نفسه فاصبح ضميره فحمة قاتمة ليس لها حظ من صفاء ، وقد نفذ سكون الليل الى قلبه فلم يتردد فيه صدى ، ولم تخطر له الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » ، ولم يشعر في الوقت نفسه بشيء من خوف لانه قد استحال كله خوفا .

وقد تجاوز المسجد في طريقه الى النهر ، واقبل امامه

من الشرق ضوء الفجر ضئيلا يمتد طولا وينبسط عرضا ، والليل وراء من المسجد صوت المؤذن يمتد طولا وينبسط عرضا ، وامتلأ الجو من حوله ضياء يوقظ الأشياء ، وغناء يوقظ الأحياء ويدعو الناس الى الصلاة . ولكن قاسما لم ير ضياء ولم يسمع غناء ، قد اظلمت عيناه وسدت اذناه ، ومضى امامه كأنه السهم الكليل الفاتر تدفعه قوة كليلة فاترة ، وجعل يمضي امامه ويمضي مترفقا ، حتى أحس انه يخطر في فراغ ، لم أحس بردا يأخذه من جميع اقطاره ، ثم لم يحس شيئا ، ولم يحسه شيء ، وانما مضى الى الغيب كما تمضي في كل لحظة أشياء كثيرة الى الغيب .

وما من شك في أن الشمس قد أشرقت بعد ذلك بنور ربها ، وفي أن المدينة امتلأت حياة ونشاطا ، وفي أن الناس اضطربوا في أعمالهم بما يضطرب في قلوبهم من نزعات الخير والشر ، وفي أن اموتة وابنتها قد انتظرتا أن يعود اليهما قاسم كما تعودتا أن تنتظرا كلما سعى الى النهر من آخر الليل ، ولكنهما أطالتا الانتظار ، ولم تظفرا منه بشيء .

وقد يحب القارىء أن يعرف كيف عبث بهما الأمل ، وكيف بطش بهما اليأس ، وكيف لعبت بهما صروف الأيام ؛ ولكن القارىء ليس في حاجة الى أن اقص عليه هذه الخطوب ، فأيسر شيء عليه أن ينظر الى هذه الحياة الصاخبة من حوله ، فسيرى فيها « اموتات وسكينات » كثيرات لا يحصين بالمئات ولا بالألوف ، وانما يحصين بمئات الألوف وقد يحصين بالملايين تطلع الشمس عليهن كل يوم مشرقة بنور ربها ، ولكنها لا تحمل اليهن رضا ولا غبطة ولا املا في الرضا أو الغبطة ، ويقبل الليل عليهن مظلما قاتم الظلمة يزدان بهذا القمر في أطواره المختلفة ، ويزدان بنقط النور هذه التي تنتشر في السماء ولكنه لا يحمل اليهن راحة ولا املا في الراحة ، وانما يدفعهن

الى نوم ثقيل بغيض كريه يشقين فيه بأحلام بغيضة تصور ما يشقين به في النهار من حياة بغيضة ، لا تحفل الشمس بهن حين تطلع ، ولا يحفل الليل بهن حين يقبل . ومتى حفل الليل والنهار ببؤس البائسين ونعيم الناعمين ! ولكن الغريب أن الأحياء من الناس الذين أتيحت لهم قلوب تشعر ، وعقول تفكر ، ونفوس تميز بين الخير والشر ، ولهم كان خليقا أن يلفتهم الى جحيم البؤس ، هؤلاء الناس يمضون حياتهم كما يمضي الليل والنهار الى غايتهما ، لا يحفلون بأموتة ولا بسكينة ولا بقاسم ، شغلتهم انفسهم عن كل شيء وعن كل انسان .

٣

خديجة

لم تنزل من السماء كما تنزل الملائكة رحمة وروحا على الأرض ، ولم تخرج من البحر كما كانت العذارى الحسان من بنات الماء يخرجن فى الزمان القديم من الجداول والأنهار ومن العيون والينابيع ، ولم يحملها الينا السحاب ، ولا أرسلها الينا نجم من النجوم ، وانما نشأت فى القرية ، وفى أسرة بائسة شقية من أسرها كما ينشأ غيرها من عشرات العذارى ، بل من أمثالهن وألوفهن فى المدن والقرى دائما ، ولكنها امتازت من أترابها بوجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقى اللون لم يتحدد . ولم يكن أحد يعرف من أين جاءت بهذا الوجه السمح الطلق المشرق النقى ، فقد كان وجه أبيها جهما غليظا قد احتفرت فيه الأخاديد احتفارا ، وفعل به البؤس والشقاء وشظف العيش الأفاعيل ، وكان وجه أمها صورة رائعة للقبح ، ان جاز أن تكون للقبح صورة رائعة ، وكان ضيق الحياة وخشونة العيش ، وهذه الضرورات المحرجة التى تدفع البائسين من العمل الى ما لا يحبون ، وترغمهم آخر الأمر عما يكرهون — كان هذا كله قد غشى وجهى هذين الأبوين بغشاء صفيق مؤلم من الكآبة ، والذلة ، والحزن ، والغفلة والغباء .

ولم تكن تمتاز باشراق الوجه ونقائه فحسب ، وانما كان اشراق وجهها ونقاؤه مظهرا لصورة رائعة بارعة من الجمال والحسن ، قد أسبغت على جسمها كله ، فكان شيئا رائعا

متقنا كأنما صنع فى تمهل وتأنق وأناة ، كأحسن ما يتمهل المثال البارع ويتأنق ويتأنى بعمله فيخرج تمثاله آية فى الروعة وفتنة العيون والقلوب جميعا .

وكان صوتها ، اذا تكلمت ، رخصا عذبا صافيا ممتلئا لا تكاد الأذن تسمعه حتى يحضر فى النفوس هذا الوقت القصير بين انطلاق الفجر من ظلمة الليل كأنه السهم ، واشراق الشمس على الأرض حتى تملأها جمالا ونورا .

كان صوتها يحضر فى النفس هذا الوقت القصير الذى يكون بين انطلاق الفجر واشراق الشمس ، والذى يترقرق فيه نسيم رقيق قليل ، ويسقط فيه الندى كأنه تحية حلوة ملؤها الحياة والنشاط قد أرسلتها السماء الى الأرض ، وتستيقظ فيه الطبيعة تستيقظ متكاسلة مع ذلك : تتغنى الطير وتخف الأوراق وتهفو الغصون ، ويهمس الضوء الفاتر الى الأرض أن انتبهى وتأهبى ، فقد أوشك موكب الشمس أن يلم .

كان صوتها يحضر فى النفس هذا كله اذا تكلمت ، ولم تكن تتكلم الا قليلا . وكان صوتها ذلك الرخص العذب الصافى يلائم وجهها المشرق النقى ، وخلقها الرائع السوى ، فكان شخصها آية من آيات الموسيقى التى لا تلذ السمع وحده ، وانما تلذ كل ما فى الانسان من ملكات الحس والشعور والتفكير . وكان الناس يتساءلون ولا يكفون عن التساؤل : من أين جاء هذان الأبوان اللذان آثرتهما الطبيعة بالدمامة والقبح ، بهذه الآية التى استأثرت بأرقى الحسن والنقاء ! وكان فقيه القرية اذا ألح الناس فى التساؤل أمامه ، تلا عليهم هذه الآية من القرآن ، منكرا عليهم تساؤلهم والحاحهم فيه : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » . ثم يقول لهم : ويحكم ! ما تنكرون أن يهب الله

الجمال للقبح وهو يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل؟! ألكم لا تنكرون أن ينشق الليل المظلم عن النهار المبصر ، ولا أن ينهزم ضوء النهار أمام ظلمة الليل ، فلم تنكرون أن يهب الله خديجة هذه لأمها محبوبة ولأبيها شعبان ؟

وكانت محبوبة هذه امرأة نصفا ، تطوف بأهل القرية تصنع لهم الخبز ، وتصنع لهم من الخبز نوعا خاصا هو هذا الذى يتخذ من الذرة رقيقا مستديرا واسعا ، لا تحسن أن تصنع غيره من خبز القمح ، فكنت تراها فى آخر الليل ملمة بهذه الدار أو تلك تهيىء العجين ، وكنت تراها فى أول النهار جالسة أمام الفرن ، تدير بيدها السريعة الصناع قطع العجين ، فتسويها فى سرعة مدهشة على الشكل الذى ينبغى أن يسوى عليه ، ثم تقذفها الى النار قذفا خفيفا رفيقا ، ثم تستردها من النار وقد منحتها النضج الذى يجعلها سائغة فى الأفواه والحلوق والبطون ، وكنت تراها حين يرتفع الضحى ويوشك النهار أن ينتصف عائدة الى بيتها ذاك الوضيع الحقير ، وقد حملت أجرها طائفة من هذا الخبز تضيفها الى طائفة ، وتعيش عليها مع زوجها وبنيها وبناتها ، ويقنعون بهذا الخبز فى كثير من الأيام ، وقد يضيفون اليه هذا الادام أو ذاك ، ان ساق الله الى شعبان رزقا ، أو تفضلت بعض الأسر الموسرة على هذه الأسرة المعسرة بشىء من طعام ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فالخبز وحده أو الخبز مع شىء مما تنبت الأرض وتصل اليه الأيدى القصار من البصل والفجل وهذه الأعشاب التى لا يتحرج البائسون من أن يستعينوا بها على الحياة .

وكان شعبان رجلا مقترا عليه فى الرزق ، قد ورث عن أبيه مهنة لا تغنى من جوع ، كان بناء متواضعا ، لا يقيم الدور التى تتخذ من الحجر والآجر واللبن ، وانما يقيم البيوت والحجرات التى تتخذ من الطين الغليظ : تراب يجمع ويصب

عليه الماء ويخلط به بعض الهشيم ، ثم تسوى منه قطع متلائمة أو غير متلائمة يضاف بعضها الى بعض لتمتد فى الفضاء وترتفع فى الجو ، وتدور أو تستطيل حول رقعة ضيقة من الأرض ، حتى اذا ارتفعت فبلغت القامة أو أقل من القامة ، مد عليها شىء من سعف النخل فاستقام منها بيت أو حجرة يأوى اليها البائسون من أهل القرى ، لتقيهم أيسر ما ينبغى أن يتقوا من عاديات الطبيعة .

وأهل القرى لا يبنون هذه البيوت فى كل يوم ولا فى كل أسبوع ، وانما يبنونها حين يتاح لهم البناء ، وحين تأذن لهم الظروف أن يتخذوا البيوت والحجرات ، أو أن يقيموا الغرفة فوق هذه الحجرات أو تلك ، أو فوق هذا البيت أو ذاك .

فكان يعمل اليوم أو اليومين أو الأيام القليلة ، ليظل بعد ذلك متعطلا أياما أو أسابيع . وكان يوسع على أهله بهذه القروش التى يغلها عليه عمله من حين الى حين ، يكسوهم ان استطاع لهم كسوة ، ويمتعهم بقليل من الطيبات ان طالت يده الى قليل من الطيبات ، فلم يكن بد من أن يعمل الصبية حين شبوا ليقوتوا أنفسهم حيث يعملون ، وليرجعوا على أهلهم بفضل ما يساق اليهم من الرزق .

وكانت خديجة كأخيها ، تعمل فى دار من دور أهل اليسار ، تقبل مع الصبح المسفر لتنفق ما تملك من نشاط فى خدمة أهل الدار ، وتعود مع الليل المظلم الى بيت أبويها لتنفق الليل فيه . وكانت راضية بهذه الحياة باسمة لها على شىء من حزن كان يستقر فى قلبها ويتغلغل فى ضميرها ، ولا يبين عنه لسانها حين ينطق ولا وجهها حين يأخذ ما يأخذ من الأشكال . كانت تفكر من غير شك فى بؤس أبويها وأخوتها الصغار ، ولكنها لم تكن تعبر عن هذه الخواطر الكئيبة بلفظ أو لحظ أو حركة ، انما كانت تخفى حزنها كما يخفى البخيل كنزه ، وربما تبث بهذا

الحزن نغمة ضئيلة مرة ، تغمر هذا الصوت الممتلىء العذب فتترك في نفوس السامعين أثرا غريبا ، وربما ألمت بهذا الحزن سحابة خفيفة رقيقة تمر بهذا الوجه المشرق الجميل ، مرا سريعا لا يتيح للذين يرونها أن يفكروا فيها فضلا عن أن يسألوا عنها . كانت حياتها في تلك الدار بهجة متصلة ورضا نقيا ، تقطعها بين حين وحين وفي لحظات قصار جدا هذه الغيمة التي تهم أن تنبىء بالحزن . ولكنها تذوب قبل أن تنبىء بما همت أن تنبه اليه .

وكانت ربة الدار محبة لخديجة رفيقة بها ، عطوفا على أهلها ، تبرهم كلما سنحت لها الفرصة ، وتحسن اليهم كلما أتيح لها الاحسان ، وكانت كثيرا ما تدعو محبوبة الى الدار وتكلفها بعض العمل اليسير الهين أو الثقيل العنيف ، تأجرها على ذلك لا بالقروش التي تضعها في يدها ، ولكن بالثوب تهديه اليها من ثيابها هي الخليعة ، أو من ثياب أبنائها وبناتها ، أو من ثياب زوجها ، وبالطعام تكلفها حمله الى زوجها وبنيها وبالطرف تطرفها بها في أيام الأعياد وفي أيام السعة والرخاء ، حين تلم أيام السعة والرخاء ، ولكنها لم تكن تقف عند هذا النوع من البر ، وانما كانت تحرص على أن يكون رفقها بالأسرة متجددا ، وعطفها عليها متصلا .

وفي ذات يوم سمعت ربة الدار في فناء دارها من نحو حظيرة الماشية صياح امرأة تصيح ، وبكاء فتاة تبكي ، وصوت عصا تلهب جسما بضرب متصل ، وصراخ صبية يجأرون بالشكاة ، فتخرج من حجرتها مسرعة ، ولا يروعها الا محبوبة قد ألقت ابنتها على الأرض وأخذت بشعرها الطويل الجميل تجذبه باحدى يديها جذبا عنيفا ، وبيدها الأخرى ترفع وتخفض بغصن يابس من هذه الغصون التي تتخذ لادارة الخبز في النار واستخراجه منها ، وغير بعيد من هذا المنظر الأليم طبقان من

خزف قد نحيا ناحية ، ومحبوبة تنظر اليهما وتسأل عنهما الفتاة ، في حين تمعن يدها في جذب الشعر ، وتمعن الأخرى في رفع العصا وخفضها .

قالت ربة الدار منكرة : ماذا أرى وماذا أسمع ! ثم أسرعت الى محبوبة فردتها عن الفتاة وانتزعت من يدها العصا ، والى الفتاة فأنهضتها وفرقت بينها وبين أمها ، ولكن محبوبة أمعنت في بكاء متصل فيه شهيق وزفير ، ثم لم تلبث أن أخذتها نوبة عصبية ، من هذه النوبات التي تأخذ أمثالها من النساء حين يمعن في الشهيق والزفير ، حتى اضطرت ربة الدار الى أن تنضحها بشيء من ماء لتردها الى الاتزان والسكون .

فلما ثابت محبوبة الى نفسها واستنبأتها ربة الدار عن خطبها وخطب الفتاة ، سمعت منها كلاما لم يكد يبلغ نفسها حتى أهلت دموعها له غزارا : سمعت منها أنها وجدت في زاوية من زوايا بيتها هذين الطبقين ، فلم تشك في أن ابنتها تخون سادتها وتسرق ما في دارهم من متاع . لم يبق اذن الا أن تسرق ، فتخون من يحسنون اليها والى أهلها ، ويتيحون لهم حياة فيها شيء من نعمة ورضا ! لم يبق اذن الا أن تسرق فتدخل الشر على أهلها وتزيد عيشهم ضيقا الى ضيق ، وحياتهم شقاء الى شقاء ، من أجل هذه السرقة التي اكتشفتها قتر عليهم في الرزق ، فردت هي عن بعض الدور التي كانت تصنع فيها الخبز ، ولم يدع زوجها الى بناء البيوت ولا الى تسوية الطوب منذ وقت طويل . لقد كنا نسأل عن مصدر هذا الشقاء ، فقد عرفناه الآن ، ان لنا ابنة سارقة تخون سادتها وتختلس ما عندهم من متاع !

قالت ربة الدار وقد كفكفت عبراتها : على رسلك أيتها المرأة ! فان ابنتك لم تسرق هذين الطبقين ، وانما كلفتها أن تحملهما اليكم أمس مع الليل ، وفيهما شيء من طعام ، كدأبي

معها دائما ، وما أرى الا أنها قد نسيتهما حين اقبلت على عملها مع الصبح . قالت محبوبة : فانها لم تحمل الينا امس طعاما كما أنها لم تحمل الينا طعاما قط . وانجلت القصة بعد قليل ، وتبين أن خديجة كانت تستحيي أن ترفض ما تكلفها سيدتها أن تحمل من الطعام الى أهلها ، وكانت تستحيي أن تحمل الى أهلها هذا الطعام ، فكانت اذا خرجت بالطبق أو الأطباق تخففت مما فيها ، تهديه الى الفقراء ان وجدتهم في طريقها الفقراء ، وتلقيه الى الكلاب ان لم تجد في طريقها الا الكلاب ، وتلقيه في عرض الطريق ان لم تجد في طريقها ناسا ولا كلابا ، ثم تضع الأطباق في زاوية من زوايا البيت ، فاذا أصبحت عادت بها الى الدار باسمة ظاهرة الرضا ، كأنها قد وسعت على أهلها بما حملت اليهم من رزق . ولكنها في ذلك اليوم قد أعجلت عن حمل الطبقين ، ولا تذكرهما الا حين رأت أمها مقبلة تحملهما وسألتها في غلظة عنهما أين كانا ومن أين سرقتهما ، ثم لا تمهلها ولا تنتظر منها جوابا ، وانما تجذب شعرها باحدى يديها وتلهب جسمها بذلك الغصن اليابس في يدها الأخرى ، ويأخذها الغضب فتصيح ، والفتاة يأخذها الألم فتبكي ، وكلما أمعنت الفتاة في النحيب أمعنت أمها في الصياح .

منذ ذلك اليوم عرفت ربة الدار أن خديجة خادم لا كالخدم ، وفتاة لا كالفتيات ، فآثرتها بالمودة ، واختصتها بالحب ، وكادت تتخذها لنفسها صديقا . وقصت على زوجها القصة آخر النهار ، فرق للفتاة وأهلها وأوصى امرأته بها وبهم خيرا ، وتلا قول الله عز وجل : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم » .

وفتيان القرية يتسامعون بقصة خديجة هذه ، ويتحدثون بما تصور هذه القصة من تعفف لا يجدونه عند الأشباه ، ومن حياء نادر لا يجدونه فيما يشهدون من أمور الناس ولا فيما يقص عليهم من أحاديث الجدات . وفتيان القرية يتحدثون عن جمال خديجة الفاتن ، وحسنها الذي يسحر العيون ويخلب القلوب ويملك الألباب . وفتيان القرية يسرون في أنفسهم حبا لخديجة واعجابا بها وطمعا فيها ، ويعلنون بألسنتهم اطراء لخديجة وثناء عليها ، والأماني تلعب بعقولهم كل ملعب ، وتسلك بقلوبهم كل سبيل . ثم يتقدم الخاطب ذات يوم من أسرة ليست عظيمة الحظ من الثراء ولكنها بعيدة كل البعد عن الاعدام لها أرض تزرع غير بعيد من القرية ، ولها ماشية تخرج من الدار مع الصباح وتعود اليها مع المساء ، وتغل على الأسرة خيرا كثيرا .

والفتى قوي موفور الصحة ، عظيم النشاط جميل المنظر ، منطلق اللسان ولا سيما حين يأخذ زينته ويذهب الى المسجد ليشهد صلاة الجمعة ثم يعود فيأخذ مع رفاقه في ضروب من العبث وفنون من الحديث .

وأسرة خديجة تسمع أول الأمر ولا تصدق ، ثم تعرف بعد انكار ، وتقبل بعد تردد فيه كثير من الأمل الذي يحيي النفوس والخوف الذي يميت القلوب ، وما يمنع هذه الأسرة البائسة أن تجد في هذه الخطبة روحا من الله ، سيتيح لها رخاء بعد شدة ، وسعة بعد ضيق ! وما يمنعها أن ترى نعيما وبؤسا ، تشفق من اصهارها لأسرة ذات سعة ويسار ! ولكن الفتى صادق محب ملح في صدقه وحبه ، وأسرته لا تعدل برضاه وسعادته شيئا آخر ، فهي صادقة ملحة في صدقها ، تبتغي الوسائل الى اقناع البؤس بأن يصهر الى النعيم .

وقد استقامت الأمور بين الأسرتين ، ولكنها لم تستقم

فى نفس خديجة ، فهى تمتنع على هـذا الزواج وتلح فى الامتناع ، تؤثر حياتها هذه التى تحياها خلدا على تلك الحياة التى تدعوها الى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على معونة أهلها . وهى تمتنع وتمتنع وتلح فى الامتناع حتى تثير الريبة فى نفس أبويها ، فما ينبغى أن تصر على هذا الاباء الا أن تكون قد قصرت فى ذات نفسها ، وفرطت فيما الشرف على الفتاة من حق .

ومحبوبة تفضى بسرها هذا البشع الى سيدة خديجة فى صوت يقطعه البكاء وتغمره الدموع ، ولكن سيدة خديجة تردها الى القصد وتعيد الطمأنينة الى نفسها البائسة وقلبها القلق ، وما تزال بالفتاة تلاينها حينا ، وتخاشنها حينا آخر ، حتى تختلس منها الرضا اختلاسا . وقد احتفلت أسرة الفتى ليوم الزفاف واحتفلت سيدة خديجة ليوم الزفاف أيضا ، وهيأت الفتاة لهذا اليوم المشهود من حياتها كأحسن ما تهيأ الفتيات من بنات الطبقة الوسطى لمثل هذا اليوم . وأبت سيدة خديجة الا أن يبدأ الزفاف من دارها لا من دار شعبان .

وفى ذات ليلة كانت محبوبة قد انكفأت على وجهها أمام بيتها الحقير تريد أن تبكى فلا تجد الدموع ، وتريد أن تتكلم فلا تجد الألفاظ ، وانما يتردد فى حلقها صوت خفى منكر ، ان دل على شىء فانما يدل على خوفها وعلمها بما ستكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على زوجه . وهى كذلك ملقاة على الأرض يضطرب جسمها من حين الى حين اضطرابا عنيفا ، وتجرى فى أطرافها رعشة تخف لحظة وتعنف لحظة أخرى ، ويتردد فى حلقها هذا الصوت المنكر البغيض ، والفرح من حولها يملأ قلوب الشباب بهجة وسرورا .

ثم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة ، وتسمع طلقات البنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من

النساء والصبية قد لفوا شيئا يشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بألفاظ ينكرها السمع ويمجها الذوق ، وسهام الزغاريد منطلقة يتبع بعضها بعضا ، كأنما تريد أن تمزق أحشاء الليل تمزيقا ، وامرأة وقاح تهز محبوبة هزا عنيفا وتزجرها زجرا مخيفا ، وتقول لها فى صوت يسمعه الناس : افيقى ! ثوبى الى نفسك ، ما تخافين ! لقد بيضت خديجة وجهك ووجه شعبان .

وتثوب السكينة الى محبوبة قليلا قليلا ، وقد أقامها النساء فأجلسنها وقدمن اليها شيئا من ماء لتسترد صوابها قليلا وقوتها موفورة .

وتنقضى الليلة كما تنقضى ليالى الأعراس ، ويقبل النهار من غد ، ولكن خديجة لا تبدو للزائرات الا مكرهة على ذلك اكراها ، تسمع منهن كل شىء ولا تقول لهن شيئا ، تحاول أن تمسك دموعها فلا تجد الى امساك الدموع سبيلا .

وهن يسألنها ، ويتساءلن فيما بينهن : ما خطبها وما مصدر هذه الكآبة التى تغمر نفسها ، وهذه الدموع التى تغمر وجهها ! ومتى رأى الناس فتاة يملأ قلبها الحزن فى مثل هذا اليوم الذى تنقبض فيه القلوب فرحا وبشرا ! هن يسألنها فلا يجدن عندها جوابا ، لأنها لا تجد عند نفسها جوابا ! أو قل ان الجواب مستقر فى نفسها ولكنها لا تستطيع أن تبديه لأنها لا تستطيع أن تصل اليه ولا تظهر عليه ، وهن يتساءلن فيما بينهن فلا يجدن جوابا لما يدور على ألسنتهن من سؤال . ولو جرت ألسنتهن على سجيتها لاخترعن الجواب من السؤال اختراعا . وأى شىء أيسر عليهن من الريبة تثار بالحق وبالباطل ! لقد رأين الفتاة أمس تزف الى زوجها شاحبة الوجه ممتقعة اللون زائغة البصر لا تمسك نفسها الا فى جهد ، كأنما كانت تساق الى الموت وهى تنظر اليه ، ولقد كانت أمها ملقاة على الأرض

اضطرب اضطراب من مسها السرع وركبها الشيطان ، أليس في كل هذا وفي بعض هذا ما يريب ؟ وتكتمين رأين الراية القانية ترتفع في ظلمة الليل وبين خفقان المصابيح .

والضحى يرتفع ، والنهار يوشك أن ينتصف ، وهذه سيدة خديجة قد أقبلت زائرة لها ، تحمل إليها التحية وتحمل إليها الهدية أيضا ، لترى وتسمع ويروعها ما ترى وما تسمع .

لم تخلو إلى الفتاة خلوة تطول شيئا ، وتخرج من عندها متضاحكة تقول لمن حولها : بنت أطفال ، وحياء فتاة غافلة لن تلبث الأيام أن تذهب به كما تذهب بكثير من الأشياء .

ولكن الأيام تمضي ولا تذهب بشيء ، أو يخيل إلى من حول خديجة أن الأيام تمضي كما تعودت أن تمضي في أعقاب الأعراس ، فالفتاة هادئة مطمئنة وإن كان وجهها الصبوح قد فقد غير قليل من جماله وبهجته ، وغشيته سحابة مقيمة من حزن رقيق يرفعها إلى النفوس حبا ويزيد موقعها في القلوب حسنا ، وإن كان صوتها الرخص العذب الصافي المتلوه قد جرت فيه نغمة حزينة متكسرة ، تجعله الله موقعا في السمع ، وأسرع نفوذا إلى القلب .

وزوج الفتاة سعيد مغتبط كأحسن ما يسعد الأزواج ويغتبطون .

وينطلق الفجر ذات يوم حزينا يريد أن يمحو آية الليل ، ويغمر الأرض هذه الساعة الحلوة التي تكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والتي كان صوت خديجة يحضرها في النفوس بما يملؤها من ترقرق النسيم ، وحفيف الأوراق وهفيف الغصون وسقوط الندى ، وغناء الطيور واستيقاظ الطبيعة ، وفي هذه الساعة الهادئة الحلوة يخرج النساء والعذارى من أهل القرية ساعيات إلى النهر متغنيات جمال الحياة كأنه

حلم يلم بنفوسهن في آخر عهدها بالليل ، وأول عهدها بالنهار . ثم يعدن إلى القرية صامتات ، قد أخذ الإشعاع يغادر نفوسهن قليلا قليلا ، وأخذت الكآبة تغشى وجوههن شيئا فشيئا ، وأخذ الهم يستيقظ في قلوبهن فنونا وألوانا ، وأخذن يتهيأن لاحتمال أثقال الحياة وآلامها ما غمرت الشمس قريتهن بنورها الملح الثقيل .

ذهبن إلى النهر فرحات مرحات ، وعدن إلى القرية كاسفات البال بائسات النفوس . وافتقدت خديجة حين تقدم النهار قليلا فلم توجد ، وإنما وجدت على شاطئ النهر وفي مكان بعيد من حيث تعود النساء أن يملأن جرارهن جرة مملوءة وإلى جانبها بعض الحلي . والتمست خديجة في النهر فلم يظفر بها الباحثون .

قالت سيدتها وهي تكفكف دموعها تريد أن تنسجم ، وتثبت صوتا يريد أن يتقطر : لقد آثرت خديجة إثرافها على الزواج ، ومس حياءها النقي ونفسها الطاهرة منه دنس ، لم يستطع الحب أن يغسله فغسله الموت .

قال سيد خديجة : وسع الله لأبويها ، فقد كتب على محبوبة أن تطوف ما عاشت بالدور تصنع لأهلها الخبز ، وكتب على شعبان ألا ينظف يديه ولا ثيابه من الطين .

* * *

٤

المعتزلة

لا أريد تلك الفرقة الإسلامية المعروفة من فرق المتكلمين ، وإنما أريد أسرة مصرية بائسة كنت أنسيت أمرها ، حتى كان هذا الوباء الذي ألم بمصر ، فذكرتها ذكرا متصلا ملحا ، وحاولت أن أتخلص من التفكير فيها فلم أستطع ، فأردت أن أتسلى عن ذكراها بالتحدث عنها لعل هذا التحدث أن يخرجها من ضميري الخاص إلى الضمير العام ، فيكون في ذلك تخفيف العبء ، وتفريج الكرب ، وشفاء لبعض ما في النفس . والهموم الثقال تخف إذا شاركت في حملها ضمائر كثيرة ، ولم يقصر ثقلها على ضمير واحد مهما يكن أيدا قويا ، فكيف إذا لم يكن له حظ من قوة أو أيد !

وأردت أن أعدي حديث هذه الأسرة البائسة إلى المترفين المنعمين في الأرض ، لا لأبغض إليهم الترف بل لأزينه في قلوبهم ، ولا لأصرفهم عن النعيم بل لأرغبهم فيه ترغيبا وأدفعهم إليه دفعا ، فقد تحدث الحكماء منذ الزمن الأول بأن الرجل الحازم خليق ألا ينظر إلى الذين يتفوقون عليه ، فتملأ قلبه الحسرة ويثقل نفسه الهم ، وأن ينظر إلى من دونه من الناس فيعرف ما أتيح له من حسن الحظ ، ويحمد رفق الله به ، ورعاية الله له وإسباغ نعمته عليه ، ويستمسك من أجل ذلك بما قسم له من الخير ، ويستمتع من أجل ذلك بما قسم له من النعيم . وأنا أبعد الناس عن التفكير في أن أزهد المترفين في ترفهم وأرغب المنعمين عن نعيمهم ، لأني أعلم من جهة أني

لن أبلغ من ذلك شيئا إن أردته مهما ألق من الجهد ، ومهما أبرع في تدبيج القول وتنسيق الحديث ، ولأني أعلم من جهة أخرى أن ترف المترفين إنما يأتيهم بحكم القضاء المكتوب والقدر المحتوم وليس من سبيل إلى تغيير القضاء ، أو تبديل القدر أو اتقاء سنة الله في الناس ، فالله قد خلق الناس على ما تراهم من هذه الفرقة فيما بينهم ، يترف بعضهم حتى يلقيه الترف ، وينعم حتى يبطره النعيم ، ويحرم بعضهم حتى يضيق به الحرمان ، ويشقى حتى يمجه الشقاء . . . ، ولأني أكره بعد هذا وذاك أن أكون كالثعلب الذي حاول أن يصيب العنب ، فلما لم يتح له ذلك عاب العنب وزعم أنه فج بغيض !

ولقد خطر لي أن أتخذ لهذا الحديث عنوانا آخر ، هو أم تمام . لا أريد به زوج شاعرنا العظيم ، وإنما أريد به زعيمة هذه الأسرة المصرية البائسة ، فقد كانت تكنى بأكبر أبنائها . وخطر لي أن أعدي حديث هذه الأم وبنيها الثلاثة إلى البائسين المعذبين الذين مسهم الضر قبل الوباء ، وألح عليهم بعد الوباء حين تخطف الموت أبناءهم وآباءهم وإخوانهم وعائليهم وتركهم نهبا للشقاء لا يعرفون كيف يتقونه ، ولا كيف يحتملونه ، ولا كيف يخلصون منه ، لا لأبغض إليهم حياتهم البائسة وعيشهم النكد ، فما ينبغي أن يبغض إلى البائس بؤسه ولا أن تكره إليه شقاءه ، وإنما ينبغي أن تحبب إليه البؤس ، ليحتمله وليزيد منه أن استطاع ، وأن تزين في قلبه الشقاء ، ليصبر عليه ويمعن فيه أن وجد إلى الإمعان فيه سبيلا ، فالبؤس قضاء محتوم على البائسين ، كما أن النعيم قضاء محتوم على المنعمين ، والشقاء قدر مقدور على الأشقياء ، كما أن السعادة قدر مقدور على السعداء . والرجل الحازم الحكيم خليق أن يرضى بالقضاء المكتوب ، والقدر المحتوم ، يحتمل الخير غير زاهد فيه ، ويحتمل الشر غير ساخط عليه ، والأمر ما

وصف المترفون بأنهم أصحاب الايمان بالقضاء ، والاستسلام للقدر ، ورضا بالمكروه فلنصدق على أقل تقدير قول الغريب عنا وظنه بنا ورأيه فينا ، ليستطيع المترفون الشجاعة ليحتملوا الترف ، وليستطيع اليائسون الشجاعة ليحتملوا البؤس ، وليصبر أصحاب الثراء على محنتهم بالثراء ، وأصحاب الحرمان على فتنتهم بالحرمان ، حتى ينتهي أولئك وهؤلاء الى الوطن الذي لا يكون فيه ثراء ولا حرمان ، والذي لا يكون فيه فقر ولا غنى ، والذي لا يكون فيه يسر ولا عسر ، والذي تتحقق فيه المساواة بين الناس جميعا حين يصيرون الى تراب كما خلقوا من تراب . ومهما يكن من شيء فقد ترددت بين هذين العنوانين : المعتزلة ، وأم تمام ، كما ترددت في اهداء هذا الحديث بين المترفين واليائسين ، ثم آثرت آخر الأمر أن أخير القارئ بين العنوانين ، وأن أهدي الحديث الى الفريقين ، ففي حديث هذه الأسرة ما يرضي المنعمين والمعذبين جميعا . وأي مطمع للكاتب أجل شأنا وأعظم خطرا من أن يرضي قراءه على ما يكون بينهم من اختلاف ، وفي حديث هذه الأسرة البائسة ما يسخط المنعمين والمعذبين جميعا . وما قيمة الكاتب اذا لم يسخط قراءه على ما يكون بينهم من الاختلاف ! وأنا أريد دائما أن أكون كاتبا ذا خطر ، فأرضي قرائي وأسخطهم ، وأسر قرائي وأسوءهم ، وأتعب قرائي حتى يكلفوا بي أشد الكلف ، وأغيظهم حتى يمقتوني أعظم المقت ، وأنا زعيم المترفين بأن يجدوا في حديث هذه الأسرة ما يحبب اليهم ترفهم ، فيعضون عليه بالنواجذ كما يقال ، ويرضون عني كل الرضا ، وبأن أصور لهم هذا الترف منكرا بشعا ، وملحما بغيضا ، فيسخطون علي أشد السخط . وأنا زعيم للمعذبين بأن يجدوا في حديث هذه الأسرة البائسة ما يعلمهم الصبر على المكروه فيرضون عني ، وما يلقي في قلوبهم أن

حياتهم لا تطاق ، وأن من حقهم أن يخرجوا منها الى حياة ألين جانبا وأرق ملمسا ، وأن ليس لهم سبيل الى هذا الخروج فيضيقون بي أشد الضيق ، وأبلغ بذلك كل ما أريد ، وهو أن أرضي القراء وأغيظهم مهما يكن بينهم من التفاوت والاختلاف ، فأنا لا أريد الا هذا ، ولا أفكر الا فيه ، وما الذي يعنيني من أن يترف المترفون حتى يقتلهم الترف ، ومن أن يشقى الأشقياء حتى يهلكهم الشقاء ! لا يعنيني من ذلك شيء ، لأني رجل من أهل العصر الذي أعيش فيه ، وأخص ما يمتاز به هذا العصر الذي أعيش فيه الأثرة وحب النفس ، فأنا رجل لا أحب الا نفسي ، ولا أفكر الا فيها ، ولا أعنى الا بها ، وأنا رجل كاتب لا يعنيني الا أن أملك على القراء أمرهم بما أثير في قلوبهم من رضا وسخط ، وبما أشيع في ضمائرهم من حب وبغض ولست أزدري شيئا كما أزدري إلقاء الدروس في الأخلاق ، ولست أفر من شيء كما أفر من ترغيب الأغنياء في العطف على الفقراء ، ومن تشجيع الأشقياء على احتمال الشقاء . ما أنا وهذا كله ! ان الناس من حولي لا يذوقون التضامن طعما ، ولا يعرفون للتعاطف قدرا ، لا يحفل بعضهم ببعض ، ولا يفكر بعضهم في بعض ، ولا يأسى بعضهم لآلام بعض ، فما لي أحمل نفسي من الإعياء ما لا يريد الناس من حولي أن يحتملوا ؟ وما لي أدفع نفسي الى هذا الشذوذ الذي لا خير فيه ولا خير لأحد فيه ؟ وما لي لا أسير سيرة الجيل ولا أعيش عيشة المعاصرين ولا أنتفع بقول أبي العلا :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا
تجاهلت حتى قيل اني جاهل

الأثرة ، يا سيدي ، هي الأساس المتين الذي يقوم عليه نظامنا الاجتماعي البديع ، الذي نغذيه بأنفسنا ونحميه بما نملك وما لا نملك من جهد ، فمن أراد الدفاع عن هذا

النظام وحياطته وصيانته من ان يعبث به العابثون أو أن تمسه الخطوب بما لا يحب وبما لا تحب ، فليكن اثرا الى ابعد غايات الاثرة ، محبا لنفسه الى اقصى آماد حب النفس ، لا يحفل بالناس الا بمقدار ما يهيئون له من الخير ، وما يحققون له من المنفعة ، وما يلقونه من الآراب ، فاذا بعد الأمل بينه وبينهم ، او خفيت عليه أسرار الصلات التي تجعله محتاجا اليهم وتجعلهم محتاجين اليه ، فلا عليه من أن ينكرهم انكارا ويزدريهم ازدراء ، ويمضي في طريقه مستمتعا بطيبات الحياة ، غير ملق بالا الى ما يكتنفهم من الهول ، وما يصب عليهم من الهم ، وما يتسلط عليهم من الكوارث والنكبات .

كذلك نعيش وكذلك يجب أن نعيش . وأيسر انحراف عن هذا اللون من ألوان العيش ، وعن هذا النظام من نظم الحياة ، خليق أن يجشمنا أهوالا ، ويحملنا هموما ثقالا . وكيف تستقيم حياتنا اذا عني أصحاب الترف المترف والثراء العريض بأصحاب البؤس البائس والعذاب الأليم ، فذادوا عنهم بعض ما يثقلهم من البؤس ، ورفعوا عنهم بعض ما يغشيهم من العذاب ، وشغلهم ذلك عن الاستمتاع بلذاتهم والانتفاع بهذه الثمرات الحلوة المرة السائغة الفجة التي تأتيهم من بؤس البائسين وعذاب المعذبين ، وشغلهم ذلك عن أن يسرعوا الى صحف الحديث حين يرتفع الضحى ، والى سخف المتاع حين يقبل المساء ، والى اللهو واللعب حين يتقدم الليل ، والى النوم الثقيل حين يهم الصباح بالاشراق ؟ اذن تفقد الحياة بهجتها ، وتفقد الدنيا زينتها ، ويصبح العيش المصري كله نكدا كدرا منغصا ، لا صفو فيه ولا عفو ولا جمال . حسب الأشقياء أن تعطف عليهم ألسنتنا وتأسى منهم قلوبنا ، وأن نرثي لهم بالقول ونقسو عليهم بالفعل ، ونخلي بينهم وبين أحداث الزمان ونوائب الأيام ، تجرعهم الآلام غصصا ، وتعلمهم كيف يكون استعذاب

العذاب المر ، وإساغة الشر الذي لا يساغ . وأقول هذا كله جادا لا عابثا ، فالله قادر على أن يمس الأرض بجناح من رحمته تتيح لأهلها جميعا ما يتمنون من الترف والثراء والنعيم ، والله قادر على ان يمس الأرض بجناح من نقمته فيفرض على أهلها ما يكرهون من البؤس والشقاء والعذاب ، وما دام الله لم يجعل الناس جميعا سعداء ، ولم يجعلهم جميعا أشقياء ، وانما قسم حظوظهم بينهم على هذا النحو الذي نراه ، فليس لنا وليس علينا الا أن نريح أنفسنا ، وان يريح بعضنا بعضا من اللوم والتكبر والتثريب ، وان يرضى كل منا بما قسم له من الحظ ، وأن يحقق السعيد ارادة الله في الأرض فينعم بالسعادة كأقصى ما يستطيع ، وان يحقق الشقي ارادة الله فيغرق في الشقاء الى كتفيه او الى اذنيه ، أو الى شعر رأسه ان شاء !

وقد يظن القارىء اني قد أسرفت في العبث من هذه الأسرة المعتزلة ، ومن حديث أم تمام ، ولكنه يخطىء أشد الخطأ ان ظن بي هذا الاسراف ، وهبه يصيب كل الصواب حين يظن بي هذا الاسراف ، فليس يعنيني من خطئه او صوابه شيء ، وانما الذي يعنيني هو اني انا لا اعتقد اني اطلت المقدمات او انحرفت عن موضوع الحديث ، فقد قلت ان هذا الوباء الذي الم بمصر اذكرني من أمر هذه الأسرة المعتزلة ما كنت ناسيا ، ثم الح علي ذكرها الحاحا شديدا . وأكبر الظن اني لم اذكر هذه الأسرة البائسة ذكرا متصلا ملحا ، ليقف منها عقلي وقلبي موقف الناظر لها المحدق فيها ، دون أن يثير ذلك في العقل بعض الخواطر ، ودون أن يثير ذلك في القلب بعض العواطف ، ودون أن يشيع ذلك في الضمير بعض الحزن . والكتاب البارعون في الفن يؤخرون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم واحزان ضمائرهم الى آخر الحديث ، يجعلون من هذا

كله عبرة لمن يريد أن يعتبر ، وموعظة لمن يريد أن يتعظ ، فيجعلون من أنفسهم أساتذة في الأخلاق ، ومصلحين لنظم الاجتماع ، ويرضون من أنفسهم بعد ذلك كل الرضا ، ويجهلون أن القارىء أشد منهم مكرا وأبلغ منهم دهاء ، وأنه يقرأ أول الحديث لما قد يجد فيه من تسلية ، أو لما قد يلتمس فيه من تسلية ، ويترك آخر الحديث لأنه يضيق بدروس الوعظ والإرشاد والإصلاح أشد الضيق .

ومن الكتاب البارعين من يشيعون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم في حديثهم كله متة يتفاوته إلى حيث يفرغون منه ، يتخذون من قصصهم أغشية لهذه المواعظ والعبر ، فيخدعون بذلك بعض القراء عن أنفسهم ولكنهم لا يخدعون القراء جميعا ، فلا يكاد الأذكياء منهم يقرأون حتى يستكشفوا مكر الكاتب ويعرفوا حيلته ، فيقرأون على كره أو يزورون عن القراء ازورارا ، فأما أنا فقد قلت وما زلت أقول : إني لا أريد أن أعلم جاهلا ، ولا أريد أن أسدد غافلا ولا أن أنبه ذاهلا ، فلست من هذا كله في شيء ، لأني واثق بأن القراء جميعا علماء لا يمكن أن يرقى إليهم الجهل ، أذكياء لا يمكن أن تسعى إليهم الغفلة ، متنبهون لا يمكن أن يعرض لهم الذهول ، وقلت وما زلت أقول : إني لا أريد أن أخدع أحدا عن نفسه ، لأني لا أسيء الظن بالقراء ، ولا أظن إليهم على أنهم أطفال يجب أن يلهوا عن الدواء بهذه الأغشية التي تحجبهم مرارته وكراهته ، فكيف وأنا لا أقدم إليهم دواء ، لأني لست طبيبا ، ولأنهم ليسوا مرضى ، ولأني راض عن حياتنا التي نحياها كل الرضا ، مطمئن إليها كل الاطمئنان ، معجب بها أعظم الإعجاب ، لا أريد أن أغير منها قليلا ولا كثيرا ، ولا أحب أن يتغير منها قليل أو كثير ، وأول هذا الحديث يدل فيما أظن دلالة واضحة على أني من المحافظين المتشددين في المحافظة ،

ومن أصحاب اليمين الذين لا يشقون بأحد كما يشقون بأصحاب الشمال .

ومن أجل هذا كله اخترت أن أتحدث إلى القراء في هذا المقال عن أم تمام وأسرتها المعتزلة ، لأن أم تمام كانت تصور المحافظة الآمنة أبرع تصوير وأسذجه وأقواه ، فهي كانت من أهل الصعيد الأعلى ، وأهل الصعيد محافظون كما يعلم القراء ، لم يفسدهم العلم ، ولم تنحرف بهم المعرفة عن الطريق القصد ، ولم تعلمهم الحضارة وما كثر فيها من البدع أن في الأرض جورا يجب أن يرتفع عنها ، وأن في السماء عدلا يجب أن يهبط إلى الأرض ليملأها أمنا ودعة ورضا ، وإنما هم قوم يعيشون على فطرتهم ، ويرسلون نفوسهم على سجاياها ، رأوا الأرض ملعبا لقليل من ملائكة العدل وكثير من شياطين الجور ، فأحبوا أولئك والفوا هؤلاء ، ولم يطلبوا من أولئك ولا هؤلاء إلا أن يمضوا فيما أسائقوا من لعب ، فإن مسهم من هذا اللعب خير نعموا به ، وإن مسهم منه شر شقوا به ، غير منكرين ولا معترضين ولا محاولين تغييرا ولا تبديلا ، ويقال إن الكاتب يختار أشخاصه على صورته ، وقد يقتطعهم من نفسه اقتطاعا ، ولولا أن أم تمام كانت غارقة في البؤس والشقاء ، ومسرفة في الدمامة والقبح ، لقلت إني اقتطعتها من نفسي اقتطاعا ، ولكني لست غارقا في البؤس والشقاء ، والحمد لله على كل حال ، وسيرى القارىء أن صورة أم تمام ليست مني في شيء ، فيدله ذلك من غير شك على أني لم أخترعها ولم أبتدعها ، وعلى أن خيالي الضعيف الكليل ليس له في حياتها ولا في حياة أسرتها أثر ما ، وإنما هي حقيقة واقعة خلقها الله الذي يخلق الحقائق كلها ، والذي يقسم بين الناس حظوظهم من الجمال والقبح ، كما يقسم بينهم حظوظهم من السعادة والشقاء .

وقد كانت أم تمام هذه غريبة الأطوار من كل جوانبها ، حتى أني لا أستطيع أن أختار الطور الذي أبدأ به من أطوارها . وربما كان الخير أن أعرض عليك صورة ضئيلة حقيرة للبيت الضئيل الحقير الذي كانت تعيش مع ابنائها فيه .

فقد كان هذا البيت أشبه شيء بالبقعة القذرة التي تفسد جمال الثوب الجميل النقي ، كان ضيقا في الفضاء أشد الضيق منخفضا إلى الأرض أشد الانخفاض ، قد أقيم من هذا الطين السلاح الذي يخلطه الفلاحون بشيء من التبن والقش ويسوونه تسوية مقاربة ويسمونه في مصر الوسطى « بالطوف » ثم يجمعون بعض هذه الأطواف إلى بعض حول قطعة من الأرض ، يرفعونها في الجو شيئا ، ويمدونها في الفضاء شيئا ، ويلقون عليها طائفة من سعف النخيل أو من قصب الذرة ، ويتخذون لها بابا من خشب رقيق ، فتصبح بيتا يأوون إليه ويتقون فيه برد الشتاء وحر الصيف ومطر السماء ، إن كان من الممكن لمثل هذا البناء الهلهل أن يقي الذين يأوون إليه بردا أو حرا أو مطرا . وكان بيت أم تمام هذا الصغير الحقير يقوم بين دارين ضخمتين فخمتين ، أو قل بين فناءين واسعين لهاتين الدارين ، وفي كل فناء من هذين الفناءين قامت أشجار وشجيرات ، بحيث هم كل فناء منهما أن يكون حديقة تقوم أمام الدار ولكنه لم يبلغ أن يكون حديقة ، فكان شيئا بين الفناء المهمل والحديقة التي يمنحها الناس شيئا من عناية ، ويجدون فيها شيئا من راحة وروح . ولم أدر كيف قام هذا البيت الحقير الصغير بين هاتين الدارين العظيمتين ، وقد سألت الناس من حولي عن هذا ، كما سألتهم عن مقدم أم تمام وبنيها إلى القرية وإقامتها في هذا البيت ، فلم أجد عند أحد منهم جوابا ، لأنهم كانوا جميعا طارئين على القرية ، دفعتهم إليها الدائرة السنية ، ولأن القرية نفسها كانت طارئة على المكان ،

أنشأتها فيه الدائرة السنية ، فلم يكونوا يعرفون من أمر جيرانهم ولا من أمر قريتهم إلا قليلا أو أقل من القليل . وكانت سيرة أم تمام وبنيها تمنع جيرانها من أن يعرفوا شيئا من أمرها فقد كانوا يعتزلون الناس اعتزالا غير مألوف . ولكن أوان الحديث عن هذا الاعتزال لم يأن بعد ، فقد ينبغي أن تعرف قبل ذلك أم تمام هذه ، أو أن ترى صورتها على أقل تقدير ، فصورتها خليقة أن ترسم : كانت أم تمام قصيرة مسرفة في القصر ، منحنية مسرفة في الانحناء ، همت قامتها أن ترتفع في الجو فلم تستطع أن تستقيم ، وإنما انعطف أعلاها على أسفلها كأنها خلقت لتلتصق بالأرض التصاقا . وكانت من أجل ذلك أشبه بذوات الأربع منها بالإنسان ذي القامة المعتدلة والقد المستقيم ، وكانت من أجل هذا إذا مشت خيلت إليك أنها تتدحرج كما تتدحرج الكرة ، وكان مشيها بطيئا رفيقا ، فكان يشبه حركة الكرة عند ما تخف عنها قوة الدفع فتضطرب مبطئة تسعى إلى السكون ، وكان صوت أم تمام نحيلا ضئيلا ، وكانت قد فقدت بعض أسنانها ، فكان صوتها النحيل الضئيل يستحيل إذا تكلمت إلى هواء خافت لا يكاد السامع يتميز حروفه إلا في مشقة وجهد . وكان يعيش معها في بيتها ذلك الصغير الحقير غلامان ، كاد أحدهما أن يبلغ العشرين ، وهو تمام ، وجاوز الآخر الخامسة عشرة قليلا ، وهو أبو العلاء . وكان تمام وأخوه يعملان في البناء ، يحاول تمام أن يكون بناء ، ويحمل أخوه الطين والماء وغيرهما من الأدوات التي تتصل بعمل البنائين ، ويصيب الغلامان من هذا العمل الذي يتصل أحيانا وينقطع أحيانا أخرى ما يتيح لأسرتهما قوتا يقيم الأود ولا يكاد .

وكانت لأم تمام بنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها ، وهي سعدى التي كلف الجمال والدمامة يختصمان

على وجهها وجسمها كله اختصاما شديدا ؛ يريد الجمال ان يستخلصها لنفسه مستعينا بقوة الصبا والشباب ، ويريد القبح ان يؤثر بها نفسه مستعينا بالبؤس وما يستتبعه من الحرمان ؛ وكانت الصبية بين هذين الخصمين اشبه شيء بالكرة يتقاذفها اللاعبان . ولم يعرف احد لهذه الاسرة زعيما ، بل لم يعرف احد كيف هبطت الاسرة من اعلى الصعيد الى هذه القرية من قرى مصر الوسطى ؛ والما كان الناس يتحدثون بان ام تمام قد نهضت وحيدة او كالوحيدة تنشيء بنيها الثلاثة وقد انفقت في ذلك جهدا جهيدا وعناء شديدا ؛ ثم انهبطت بهم من صعيدها الاعلى الى قريتنا تلك الا متنقلة بين المدن والقرى ، تقيم في هذه المدينة سنة او اقل او اكثر ، وتقيم في هذه القرية اشهرا ، وفي هذه القرية اسابيع ، وفي هذه القرية اياما قليلة او كثيرة ، حتى انتهت الى قريتنا تلك ، فاقامت فيها واطالت المقام .

ولم يكن اسم ام تمام اقل غرابة من كنيتها ، بل لم يكن اقل من جسمها ، فانت ان اردت ان تنطق به كما كان الناس ينطقون به في القرية قلت : ست آبوها ، وان اردت ان تنطق به على اصول اللغة الفصحى قلت : سيدة أبيها ، او ست ابيها ، كما كان الناس ينطقون في بعض عصورنا القديمة . وكان هذا الاسم يقع من آذاننا موقعا غريبا ، وكنا ننطق به على انه كلمة واحدة لا كلمتان ، وكنا نسأل انفسنا عن معنى هذا اللفظ الغريب .

ولم تحاول ام تمام قط ولم يحاول احد من بنيها قط الاتصال بالناس الا حين كانت الضرورة الملحة تضطرهم الى ذلك اضطرارا ، فقد كانوا يحتاجون الى ان يشتروا الطعام ليقيموا أودهم ، وكانت ام تمام تحتاج احيانا الى ان تبيع ، فقد كان يعرض لها في بعض الوقت ان تخرج الى الطريق

الزراعية العامة ، وان تلتقط من هذه الطريق روث البقر والجاموس ، فتطعمه قطعا متقاربة ، وتجففه على سقف بيتها ، وتتخذ منه وقودا لتطبخ ان اتيح لها ان تطبخ ، وتبيع فضله بين حين وحين لبعض نساء القرية بالقروش او ببعض القروش ، توسع بذلك على نفسها وعلى بنيها ، ولم يخطر فيما اعلم لاحد من الموسرين ولاهل الدارين اللتين كانتا تكتنفان بيتها ان يبروا هذه الاسرة بقليل او كثير من الخير ، لا لان الموسرين كانوا يبخلون بالمعونة على الذين يحتاجون الى المعونة ، بل لانهم في اكثر الظن قد هموا ان يبروا هؤلاء الناس فردوا برهم عليهم في شيء من العنف الذي لا يحب من الفقراء ، فكف الموسرون عن محاولة الرفق بهم والتوسيع عليهم في الرزق .

وامثال ام تمام في القرى يوسعن على انفسهن وعلى ابنائهن وازواجهن احيانا بالعمل في دور الموسرين والاغنياء ، يكسبن من هذا العمل قوت انفسهن وفضلا من خير يحملنه الى البيوت ، فيأكل الجائع ويكتسي العريان ويذوق المحروم شيئا من طيبات الحياة ، ولكن ام تمام لم تحاول شيئا من ذلك ولم تفكر فيه ، وكانها قد حرجت على ابنيها ان يحاولا بعض ما يحاول الشباب الفقراء من الاتصال بشباب الاغنياء واصحاب السعة ، فلم يكن الغلامان يشاركان في لعب ولا في جد . وربما رآهما الراءون وقد جلس كل منهما الى اخيه يخططان في الارض او يلعبان لعبة « الطاب » ، وكذلك نظر اهل القرية الى هذه الاسرة على انها اسرة غريبة ثقيلة سمجة ، ليست منهم وليسوا منها في كل شيء . وكان اهل القرية مع ذلك يتحدثون فيما بينهم عن هؤلاء الناس في اشفاق كثير لا يخلو من سخرية وربما يخلو – ان امكن ان يكون الاشفاق قاسيا – فيشتمل على شيء من شماتة . كانوا يرون هذين الغلامين يحتملان اشد العناء واشق المشقة ليكسبا القروش القليلة في بعض

الأيام ، ويتساءلون كيف تعيش هذه الأسرة من هذا الكسب القليل ، وكانوا يرون هذين الغلامين وقد بليت ثيابهما فكشفت عن مواضع من الجسم من حقها أن تستر ، ورقعت حتى ملت الترقيع ، وكانوا يرون الصبية سعدى في أسمالها البالية ، فيرحمون هذا النبا النضر في هذا الفناء المبتذل . ويقول بعضهم لبعض : لولا الكبرياء لأصاب هؤلاء الناس عيشا أرق رقة وألين لينا .

اما ام تمام فلم يرها أحد قط الا ملتفة في شقتها السوداء تتدحرج على الأرض حين تشرق الشمس سائية الى الطريق العامة ، وتتدحرج على الأرض حين يرتفع الضحى أو ينتصف النهار ، حاملة ما جمعت من روث ، وربما رآها الراءون متبذلة على سقف بيتها تقطع الروث وتسويه ، فرأوا منظرا بشعا وشكلا مخيفا .

وبقيل الوباء ولما يبلغ هذا القرن من عمره ستين . ويلم الوباء بالقرية فيما يلم به من المدن والقرى ، ويفجع الناس في أنفسهم وأبنائهم وذوي قراباتهم ومحبتهم ، وتكون ام تمام في طليعة الذين يفجعهم الوباء ، فهو يختطف ابنيها في أقل من خمسة أيام ، وهي مع ذلك هادئة ساكنة مطرقة بحسنها كله الى الأرض ، لا يرتفع لها صوت بالاعوال ، ولا ينخفض لها صوت بالنحيب ، وانما هي مقيمة في بيتها ، وقد آوت اليها ابنتيها كأنما تنتظران أن يلم الوباء بهما ويختطفهما كما اختطف الغلامين . ولكن الوباء قد أرضى حاجته من هذا البيت فهو لا يعود اليه ، فاذا طال انتظار ام تمام له في غير طائل ، نظر الناس فاذا أطوارها قد تغيرت من جميع جوانبها ، واذا حياتها قد بدلت تبديلا ، فهي لا تألف بيتها ولا تحب الاستقرار فيه ، وانما تمسك فيه الصبية وتحرج عليها أن تخرج منه ، وتنطلق هي مع الشمس المشرقة لتعود الى بيتها وابنتها حين ينشر

الليل ظلمته على الأرض ، ويسعى الموت والمرض مستخفين الى البيوت .

كانت أم تمام تخرج من بيتها حين تشرق الشمس ملتفة في شقتها السوداء مطرقة بحسنها كله الى الأرض ، فتقف أمام بيتها وقفة قصيرة تستقبل الغرب ، وترفع رأسها في تكلف شديد الى السماء ، وتمد بصرها أمامها ، ثم تلتفت الى يمين والى شمال تجتذب الهواء بأنفها جذبا ، كأنما تحاول أن تنسم رائحة خفية ضئيلة ، وقد كانت بالفعل تتنسم رائحة الموت تندفع الى يمين أو الى شمال ، ثم لا يراها الناس أثناء النهار كله الا في دار من هذه الدور التي ألم بها الموت وقام فيها المأتم يندبن ويبكين ، وكانت أم تمام تصل الى هذه الدار أو تلك فلا تقول لأحد شيئا ولا تلقي الى أحد سمعا ، وانما تقصد المأتم الباكيات ، وتجلس حيث ينتهي بها المجلس ، لا ترفع صوتا بإعوال ولا تخفض صوتا بنحيب ، لا تلطم وجهها ولا تخمش صدرها ولا تسمع سجع أحد من هؤلاء النساء ، وانما تجلس ساكنة منعطفة على نفسها ، كأنها قطعة من صخر قد سويت على عجل ونحتت في غير نظام ، وفاض من عينيها دمع غزير غير منقطع ، كأنه بعض تلك الينابيع الضئيلة التي يتفجر عنها الصخر في الجبال ، حتى اذا بلغت حاجتها من البكاء في هذه الدار تركتها الى دار أخرى ، ثم الى دار ثالثة ، وما تزال كذلك حتى ينقضي النهار ، لا تكلم أحدا ولا يكاد يكلمها أحد ، ولا ترد على الذين كانوا يكلمونها رجع الحديث . أكانت تبكي ابنيها ؟ أم كانت تبكي أبناء تلك الأسرة التي كانت تلم بها ؟ أم كانت تبكي صرعى الوباء جميعا ؟ أم كانت تبكي نفسها وابنتها بين الذين لم يصرعهم الوباء ؟ وكيف كانت تعيش ، وكيف كانت تتيح لابنتها الصبية أن تعيش ؟ لم يستطع أحد قط أن يعرف من ذلك قليلا ولا كثيرا ، لم يحاول أحد

ان يعينها ، ولم تحاول هي ان تستعين بأحد ، وانما انفقت
أيام الوباء تتنسم ريح الموت حين يسفر الصبح ، وتستقصي
نحوها في منازل الموت اثناء النهار ، وتعود الى بيتها وابنتها
حين يقبل الليل . وتنجلي غمرة الوباء ، وتخرج ام تمام من
بيتها مع الصبح اياما واياما ، فتستقبل بوجهها الغرب تتنسم
ريح الموت فلا يحملها اليها النسيم ، فترجع ادراجها وتدخل
بيتها وتغلق من دونها الباب ، ولا يراها النهار الا حين تخرج
مع الصبح لتتنسم ريح الموت . ويراها بعض اهل القرية ذات
يوم قد خرجت قبل ان يرتفع الضحى ، واخذت بيد ابنتها ،
وجعلتا تسعيان في بطء نحو الغرب ، فيقول بعضهم لبعض :
هذه ام تمام قد ملت البطالة ، وسئمت السكون وشق عليها
وعلى ابنتها الجوع ، فخرجتا تلتمسان الرزق وتبتغيان من
فضل الله . ولكن النهار لا يكاد ينتصف حتى يأتي نفر من
الفلاحين يحملون جثة قد شاع فيها الموت ، وجثة اخرى
تمتنع على الموت امتناعا ، قد راوا ام تمام تغرق نفسها وابنتها
في القناة الابراهيمية ، فاسرعوا الى استنقاذهما ، ولكن الموت
سبقهم الى الشيخة وسبقوه هم الى الصبية ، وقد دفن اهل
الخير ام تمام ، وآووا سعدى ، في هذه الدار اياما وفي تلك
الدار اياما ، ولكن سعدى خرجت من الماء بلهاء ليس لها حظ
من عقل ولا نصيب من صواب ، فهي ثقيلة على الذين يؤوونها ،
بغيضة الى الذين يضيفونها ، وما هي الا اسابيع حتى تلفظها
الدور والبيوت ، واذا هي مشردة تسعى ما استطاعت السعي ،
وتسكن حين تضطر الى السكون ، تراها في هذا الشارع من
شوارع القرية مصبحة ، وفي هذا الزقاق من ازقتها ممسية ،
وتراها بين ذلك في الطريق العامة تسعى سعيا رفيقا كأنها
السلحفاة ، او تعدو عدوا سريعا كأنها الارنب . وقد تراها
احيانا جالسة على شاطئ القناة تنظر الى الماء كأنها تريد ان

تغوص فيه ، او تنظر الى السماء كأنها تريد أن ترقى اليها .
وعرف الناس سعدى البلهاء ، ونسي الناس أم تمام ، وجعل
الناس ينظرون الى سعدى البلهاء كما ينظر اهل الريف الى
امثالها : يعطفون عليها حينا ويضحكون منها احيانا ، يرثون
لها مرة ويقسون عليها مرات .

وسعدى البلهاء على ذلك تعيش وتشب ويستدير جسمها
ويستقيم قدها ، ويسخر البؤس منها فيلقي على وجهها مسحة
من جمال ، وهي على ذلك حمقاء خرقاء لا تحسن أن تعمل ،
ولا تحسن أن تقول ، ولا تستقر في مكان ، وانما هي متنقلة
بين القرى ، ترى في هذه القرية يوما وفي تلك القرية يوما
آخر ، وقد ترى في هذه القرية مصبحة وفي القرية المجاورة
من قريب او من بعيد ممسية ، ولكن اهل القرية يرونها ذات يوم
فيرون منظرا عجيبا من شأنه ان يمزق القلوب حزنا ويغرق
النفوس حسرة واذى ، يرون هذا المنظر المؤذي البشع البغيض
فلا يثير في نفوسهم رحمة ولا يجري السنتهم بكلمة رثاء ،
وانما ينظرون ثم يتضاحكون ثم يتبادلون هذه الالفاظ القبيحة
التي تصور سخرية اهل الريف ، لأنهم يرون سعدى البلهاء
تسعى وبطنها يسعى بين يديها ، قد عبث بها غول من اغوال
الطريق فوضع في احشائها جنينا ، وهي بلهاء لا تفرق بين
الغول والرجل ولا بين الملك والشيطان ، ولا تعرف ما يراد بها
ولا تعرف ما تريد ان كان لمثلها أن تريد .

أين مضت سعدى بهذا الجنين الذي كانت تحمله في
احشائها ؟ أتيح لهذا الجنين أن يرى النور أم لم يتح له أن
يراه ؟ ما خطبه وما خطب أمه ؟ لن أحدثك من أمرهما بشيء
لأني لم أعرف من أمرهما شيئا ، وانما حدثتك بما وقف عنده
علمي ، فقد ارتحلت عن القرية قبل أن تبلغني أنباء الجنين
وأمه البلهاء ، ثم شغلت عن الجنين وعن أمه البلهاء ، وأنسيته

ام تمام وابنتيها ، وتقلبت فيما شاء الله أن أتقلب فيه من شؤون الحياة خمسة واربعين عاما ، ثم أعود الى مصر بعد غيبة منها قصيرة او طويلة ، فاجد فيها الوباء ، وما هي الا أن اذكر ام تمام وابنتها سعدى البلهاء ، وما هي الا أن أسأل نفسي أيمكن أن يجد الوباء الحديث ما وجد الوباء القديم من حال ام تمام واشباه ام تمام ؟

يقال ان شؤون مصر قد تغيرت ، وان حياة مصر قد صلحت فيما يقرب من نصف قرن ، ولكن شؤون مصر التي تغيرت ، وحياة مصر التي صلحت ، لم تمنع الوباء من أن يجدد عهده بزيارة مصر ، فمن يدري ! لعل تغير الشؤون وصلاح الأحوال ورقي النظام الاجتماعي والسياسي ، لا يمنع من أن توجد في قرية من قرى مصر العليا او من قرى مصر السفلى ، أو قريبا جدا من القاهرة ، أسرة معتزلة كأسرة أم تمام ؟



٥ رفيق

١

كان ذلك في ساعة من ساعات الضحى ، حين كان النهار يجب أن ينقضي في سعيه ، ليحبس الصبية والشباب من أهل الكتاب ، ويمسكهم في حياتهم تلك التي كانت تخضعهم لعنف سيدنا ومكر العريف ، ويؤخر عنهم هذه اللحظة السعيدة التي يؤذن لهم فيها بالانطلاق ليسعوا اقدامهم ، والتي كانوا ينتظرونها مشوقين اليها ، لا ليرضوا حاجاتهم الى الطعام ، بل ليرضوا حاجاتهم الى الحرية واللعب . وكان الصبية والشباب من أهل الكتاب يستبطئون ارتفاع الضحى وزوال الشمس ، ويخدعون انفسهم عن هذا الانتظار الشاق البغيض ، بنشاط قريب مفاجىء ، ترتفع فيه الأصوات بالقراءة وتكثر فيه حركة الأيدي التي تمسح الألواح لتزيل منها ما حفظ أمس ، ولتكتب فيها ما سيحفظ بعد الغداء . وكان الكتاب في ذلك الوقت أشبه شيء بخلية النحل ، كله حركة ، وكله نشاط ، وكله دوي يرتفع حتى يسمع من بعيد جدا ، على ما فيه من تباين الأصوات واختلافها بين أصوات الصبية النحيلة الضئيلة العالية التي لم تثبت بعد ، وأصوات الصبية التي أخذت تمتلىء لأن أصحابها قد تقدمت بهم السن شيئا ، وأصوات الشباب التي كانت تشبه أصوات الرجال وكادت تسرق حظها من الامتلاء وكانت هذه الأصوات المختلفة المنطلقة في وقت واحد ، تحمل

الى الآذان شيئا حلوا رائقا ، فيه كثير من الملاءمة والانسجام ، يشبه ما تحمله الى الاذن الأدوات الكبيرة للموسيقى حين يشتد اختلافها في طبيعة الجرس ، وينشأ عن ائتلاف مختلفها جمال يسحر السمع ، ويملأ النفس روعة وطربا .

في هذه الساعة من ساعات الضحى ، وفي ساعة أخرى من ساعات النهار حين كان الإذن يوشك ان يدعو الى صلاة العصر ، كانت حماسة الصبية والشباب من اهل الكتاب تبلغ أقصاها ، ولم يكن من اليسير ان يظفر سيدنا او العريف بردهم الى السكوت دون ان يصفق تصفيقا قويا ، ويخرج من حلقه صوتا كأنه الرعد يروع الآذان ويفجأ النفوس ؛ فيعقد الألسنة عن النطق ، ويكف الأيدي عن الحركة ، ويجعل التلاميذ في صمت أبله ، وسكون أحمق ، ووجوم غريب .

في ساعة من تلك الساعات ، وقف على عتبة الكتاب بين شقي الباب رجل تجاوز الشباب ولكنه لم يمعن في الشيخوخة وعليه مظهر الثروة وارتفاع المنزلة ؛ يعرف ذلك من لباسه الأنيق ، ووجهه الذي تشرق فيه الثقة وتظهر عليه الكبرياء ، وكان الرجل مرتفع القامة ، مهيب الطلعة ، ظاهر النعمة ، يدل منظره على انه راض عن نفسه كل الرضا ، مستقر في الحياة كل الاستقرار ، لا يخاف شيئا ولا يشك في شيء ، ولا يعرف التردد ولا الاضطراب ، وأكبر الظن انه كان ضابطا من ضباط الجيش وقتا ما ، ثم تحول عن الحياة العسكرية الى الحياة المدنية ، فانتقل الى هذه الحياة الجديدة محتفظا بعاداته وتقاليده العسكرية كلها او اكثرها ، واكبر الظن انه لم يكن مصري الأصل ، وانما كان تركيا تمصر هو او تمصرت اسرته ، فقد كان يحمل في وجهه وفي شكله كله شيئا لا ادري ما هو ، ولكنه يبين انه ليس من المصريين ، ويباعد بينه وبين المصريين

مباعدة ما ، ويثير في نفوس المصريين اذا رأوه من قريب شيئا غريبا فيه الإكبار له وفيه استخفاف به .

وكان هذا الرجل حين وصل الى الكتاب ، قد أعطى كلتا يديه لصبيين يكتنفانه ويسعيان معه سعيا رفيقا ، فأما أحدهما عن يمينه فقد كانت على وجهه سحابة رقيقة من حزن وأما ثانيهما عن شماله فقد كان باسم الثغر مشرق الوجه يكاد يخرج من جسمه قوة ونشاطا ، فلما بلغ باب الكتاب ومن حوله هذان الصبيان اللذان احيته ، فسمع أهل الكتاب صوتا لم يسمعوا مثله قط في قريتهم ، صوتا ضخما عريضا ممتلئا ، ألهى سيدنا وألهى العريف عن التصفيق والزئير ، فقد قرع آذان التلاميذ ، وفجأ نفوسهم ، وعقلهم في هذا السكوت الأبله ، وفي هذا السكون الغريب ، ووثب سيدنا كأنما دفعه دافع ، فاذا هو قائم على دكته قد أعجل حتى عن ان يقوم كما تعود ان يفعل في مهل وأناة ، وقد رد التحية على صاحبها في شيء من وجل ، ثم دعاه الى ان يتفضل بالجلوس ، وتنحى له عن موضعه في صدر المكان ، وشكر الزائر لهذا الشيخ احتفاءه به ودعاءه له الى الجلوس ، ولكنه أبى ان يدخل وأبى ان يجلس ، وقال في صوته ذلك المهيب المخيف : « اني حديث عهد بهذه المدينة ، لم أصل اليها الا منذ يومين . وقد عرفت ان كتابك هو خير ما فيها من الكتاتيب ، فأحببت ان أقود اليه ابني هذين ، وان أكل اليك تعليمهما ، فأما أحدهما فهو هذا — وقدم الصبي الذي كان قد أعطاه يده اليمنى — فقد فقد بصره الا قليلا ، فهبه كل عنايتك وأحفظه القرآن ، فاني قد وهبته للأزهر ، وأما ثانيهما فعفريت ما أراه يصلح الا للمدرسة ، فامسكه في الكتاب حتى لا ينسى من الكتابة والقراءة ما تعلم ، وأحفظه شيئا من القرآن ، وخذه بشدة أن أبى الا أن يكون عفريتا في الكتاب كما هو عفريت في البيت » . ثم دفع من فمه

ضحكا عريضا ما أظن إلا أنه روع بعض القلوب في صدور أولئك الصبية الصغار ، ثم تقدم خطوة وأخذ بيد سيدنا فوضعها على كتف أحد الصبيين وقال : « هذا هو الأزهري » ثم رفع يد سيدنا عن كتف ذلك الصبي ووضعها على كتف الصبي الآخر وهو يقول متضاحكا : « وهذا هو العفريت » . ثم قال لسيدنا : « أما الأزهري فاسمه عثمان ، وأما العفريت فاسمه محمود . أتريد أن أتركهما لك منذ الآن ؟ أم ترى أن أعود بهما اليوم على أن يسلكا سعيهما الى الكتاب اذا كان الغد ؟ » وهم سيدنا أن يجيب ، ولكن الرجل لم يمهله وانما قال : « سأستصحبهما اليوم وسيسعيان الى الكتاب منذ غد ، ولا تطلقهما للغداء فسيحمل اليهما غداؤهما كل يوم ، ولا تطلقهما اذا صليت العصر حتى يأتي من يصحبهما الى الدار ، فانهما غريبان لا يعرفان طريق المدينة بعد وليست الدار قريبة من الكتاب » . ثم ألقى تحيته بصوته ذلك الرهيب المخيف ، وأدار ظهره متصرفا لم ينتظر أن ترد عليه تحيته . وما أحسب الا أنه قد سمع هذا الضحك الذي اندفع الكتاب كله فيه ، والذي لم يستطع سيدنا ولا العريف أن يكفا عنه التلاميذ الا حين أذنا لهم بالانطلاق ليصيبوا غداءهم ، على أن يذكروا أن من تأخر منهم عن موعده فلن تغني رجلاه من هذا النصيب المعلوم من العذاب الذي لم يكن يقل عن خمسة سياط وربما بلغ العشرين سوطا .

وقد رضي سيدنا ورضي معه العريف عن يومهما ، وعما ساق الله اليهما من الخير فيه ، فقد كان هذا الرجل موظفا كبيرا طرأ على المدينة منذ أيام ، ولم يكن شك في أنه ضابط تركي تقدم من ضباط الجيش ، يظهر ذلك في حديثه ، وفي عربيته التي تبرأ من الرطانة والتكسر ولكنها لا تمضي مستقيمة الى غايتها ، وانما يثقل بها لسانه ، ويعثر بها منطقه ، بل

زعم العريف أن زوجه تركية خالصة لا تتكلم العربية الا في مشقة شاقة وجهد شديد ، وهي اذا أتيح لها أن تتكلم العربية التوى لسانها بها التواء شديدا ، وهي تؤنث المذكر ، وتذكر المؤنث ، وتهمل بعض الحروف العربية الاهمال ، وزعم العريف أن هذين الصبيين اللذين قد بلغا طور الشباب وظفرا بحظ من جمال لا يتاح الا للترك أو من يشبههم أو يقاربهم من الأوروبيين . وقد سمع سيدنا كل هذا الكلام غير حافل به ولا آبه له ، وآية ذلك أنه لم يرد على العريف الا بقوله : « ما أظنه يدفع أقل من عشرين قرشا في الشهر أجرا لتعليم ابنيه » .

وكان في الكتاب صبي لم ينطلق مع التلاميذ ليصيب غداءه ، لأنه كان من الذين يحمل اليهم الغداء في الكتاب ، وقد سمع حديث الأب الى سيدنا وسمع حديث سيدنا والعريف عن الأب وابنيه وعن الأسرة كلها ، فوعى هذا كله في صدره وحفظه في نفسه ، ولم يكد يبلغ داره بعد أن صليت العصر حتى أعاد الى أمه ما سمع من حديث ، وسألها عن هذه الأسرة ، فقالت باسمة : « انها أسرة المأمور الجديد ، وستزورنا السيدة وابنتاها بعد حين ، فاحذر أن تقع عين احداهن عليك » .

٢

ولم يرتفع الضحى من الغد حتى كان الصبي قد تعرف الى زميليه في الكتاب ، عرفه اليهما سيدنا ، لأنه كان يحب أن يؤلف بين أبناء الأسر التي تستمتع بحظ من الامتياز ، ولأن هذا الصبي كان حافظا للقرآن مجودا له فلم يتردد سيدنا في أن يكلفه اقراء الصبي الأزهري ، وقال له وقد أخذ بيده الصغيرة فوضعها على لحيته الغزيرة : « لقد وكلت اليك

ذقني ، فاحفظ هذا الصبي ما حفظت واجد احتفاله ، ولا تفضحني عند أبيه الوظف الجديد الكبير ، وقدر اني وكلت اليك عملا كنت خليقا أن أنهض به انا ، او ان اكله الى العريف »
وقد وجد الصبي في نفسه شيئا من الكبرياء ، فقد أصبح معلما بعد أن كان متعلما ، وأصبح مقرئا بعد ان كان قارئا ، ووجد في نفسه شيئا من الفرح والابتهاج لاتصال الأسباب بينه وبين هذين الزميلين المترفين اللذين يلبسان اللباس الأوربي ويضعان على رأسيهما الطربوش ، ولا يلبسان هذه الثياب الفضفاضة القذرة التي كان يلبسها التلاميذ من أهل المدينة ، واللذين ينتميان الى اسرة تركية ولا ينحدران من هذه الأسر التي تتألف من التجار والفلاحين . وقد اقبل الصبي على عمله ، فطلب الى تلميذه ان يتلو عليه ما حفظ من القرآن في القاهرة ، ثم اتخذ هذا لنفسه سببا للسؤال عن كتاتيب القاهرة كيف تكون ، وعن سادة هذه الكتاتيب كيف يسيرون مع التلاميذ ، وعن مذاهب هؤلاء السادة في تأديب تلاميذهم ووسائلهم الى هذا التأديب ، والأدوات التي يصطنعونها فيه . وكان الصبي يسمع احاديث تلميذه كلفا بها متهالكا عليها ، يكاد ينسى في سبيلها ما وكل اليه من اقراء هذا التلميذ ، لولا انه كان يذكر من حين الى حين يده الصغيرة في اللحية الغزيرة ، وصوت سيدنا الغليظ وقد تكلف الرقة والرفق ، وهو يلفته الى انه يكلفه عملا خطيرا كان خليقا أن ينهض به هو أو أن يكله الى العريف ، فكان ذلك يرده الى القصة ويحمله على اداء الواجب . وكان النهار يمضي ساعة للقراءة وساعة للحديث ثم ازدادت الأسباب بين الصبي وزميليه متانة واتصالا ، فكان الثلاثة يخرجون من الكتاب اذا صليت العصر ، فيذهبون معا الى بيت الصبي قليلا والى بيت الزميلين غالبا ، وكان البيت انيقا مترفا في نفس الصبي يملأ قلبه حين يدخله روعة وكبرا .

كان قائما على القناة ليس بينه وبين الماء الا هذه الطريق الضيقة التي يسعى فيها الناس ودوابهم بين المدينة والقرية ، وقد انبسطت من وراء سوره المرتفع الذي تكسوه الأغصان الخضر والزهر النضر حديقة عميقة مترامية الأطراف ، عن يمين وشمال ، تقوم الدار من ورائها مطمئنة لا ترتفع في السماء الا قليلا ، ولكنها تمتد في الفضاء وتكثر فيها الحجرات ، وكان الذي يفجأ الصبي من أمر هذه الدار ويملأ قلبه رضا واعجابا ، انه كان اذا عبر اليها الحديقة العميقة ودخل الدهليز الذي ينبسط بين الحجرات ، لم يمش على ارض من تراب ، وانما يمشي على ارض قد بسط فيها البلاط ، وكثيرا ما راعه انه كان يرى الخادم تغسل هذه الارض غسلا وتنقيها تنقية ، ولا ترش عليها الماء رشا ليستقر ترابها فلا يثور . وكان مما يملأ قلب الصبي رضا واعجابا انه كان لا يكاد يدخل الدار مع زميليه حتى ينعطفوا الى يمين ، ويأووا الى حجرة خاصة لا يسكنها احد من أهل الدار ، ولا يطرقها احد غير هذين الصبيين ، قد خصصت لهما يلعبان فيها ، وجمعت لهما فيها ادوات كثيرة مختلفة غريبة اللعب ، واسندت الى جدرانها كراسي ومجالس يستريح عليها الصبيان ومن يلاعبهما من الرفاق ، فهما لم يكونا يجلسان على الأرض ولا يلعبان في الفضاء المنبسط امام الدار ، ولا يعرض لعبهما لضحك الكبار منه او مشاركة الوقحين من الأطفال فيه ، كان لعبا مترفا في حجرة مترفة ليس للصبي بمثله عهد ، وكان الثلاثة اذا وصلوا الى الدار لا يكادون يستقرون في حجرتهم تلك حتى تلم ربة الدار وآنسة من الآنستين ، فيكون الحديث الرقيق والحنان الرقيق والدعابة العذبة ، ثم يخلو الصبية بعد ذلك الى لعبهم فينفقون فيه ما شاء الله من وقت يقصر او يطول .

وكانت ربة الدار سيدة كريمة ، فقد تقدمت بها السن

شيئا ، ولكنها كانت حلوة الشمائل ، عذبة الحديث فى لهجة
عربية غريبة ، ضعيفة أشد الضعف ، ملتوية أعظم الالتواء ،
وكان حديثها ذلك الملتوى المتعثر البطىء يسحر نفس الصبى
ويملأ قلبه فتونا ، فأما الاستاذ فقد كانت كبراهما نفيسة
رائقة الحديث ، شائقة الدعابة ، متكسرة اللفظ ، تتكلم فيخيل
الى السامع أن عهدها بالنوم غير بعيد ، وكانت على ذلك ماكرة
حديدة اللسان ، لاذعة النكتة ، بطيئة الحركة ، قليلة النشاط ،
وكانت أختها الصغرى اقبال محشوة من النشاط لا تنقطع لها
حركة ولا يستقر لسانها فى فمها ، وهى على ذلك حلوة المحضر ،
مشغوفة باللعب ، لو اطلقت لها حريتها لما فارقت الصبية
ولا زهدت فى لعبهم ، ولكن الدار كانت منظمة ادق النظام
واشقه ، فلم يكن يتاح لهاتين الاختين الا قليل من فراغ بين
حين وحين . وقد نعم الصبى بهذه الحياة وقتا لا يذكر أطال
أو قصر ، ولكنه يرى ذات يوم فى الدار حركة غير مألوفة ،
ويخيل اليه ان فى الجو شيئا لا يلبث ان يعرف ما هو ، فقد
خطبت نفيسة ، وما هى الا أسابيع حتى يقبل قوم من القاهرة ،
وحتى تقام فى الدار أعياد ، ثم يعود الزائرون من حيث أتوا
وقد استصحبوا نفيسة ، ففقدت الدار من جمالها وبهجتها
شيئا غير قليل .

والحياة مع ذلك ماضية فى طريقها فى عدوتها المتصل
واطرادها الممل ، والصبى ناهض بواجبه ، يحفظ زميله القرآن
ويشاركه فى اللعب ، ويخوض معه فى فنون الحديث ، ولكن
محمودا يتحول من الكتاب الى المدرسة المدنية ، فيفقد الكتاب
بانصراف العفريت عنه من بهجته شيئا غير قليل . ويخلو
الصبى الى زميله وتلميذه عثمان بعلمه وبلاهته ، ولكن الشام
يسعى بينهما ، واذا بالصبى ينصرف عنه قليلا قليلا ، ويشغل
شيئا فشيئا برفاق آخرين من أهل المدينة ، يعرضون عليه

فنونا جديدة من اللعب ، ويلقون اليه الوانا طريفة من الحديث ،
ويقرأون معه كتبا لا عهد لأبناء الكتاب بها ، ولا ارب لهم فى
قراءتها ، والصبى مع ذلك يلقى رفيقيه المترفين فى داره حينا
وفى دارهما حينا آخر ، ثم يسمع ذات ليلة ابويه يتحدثان فى
شىء من الحزن وفى شىء من السخرية ايضا بأن الضابط التركى
القديم من ضباط الجيش قد سافر الى القاهرة فأقام فيها
اياما ، ثم عاد ومعه سيدة تركية لم تبلغ الثلاثين بعد ، لها
حسن رائع ، وجمال بارع ، وفتنة فاتنة ، وتسلط على
الضابط الشيخ عظيم ، وان تلك الدار المترفة الانيقة التى كانت
جنة من جنات النعيم ، قد اصبحت مستقرا الحزن والبؤس
والشقاء ، قد اصبحت جحيما تصلى فيه ام البنين نار الحزن
ولوعة الغيرة ، ويشقى فيها هؤلاء الثلاثة بما يرون من حزن
أمهم وبؤسها وبكائها المتواصل واعتكافها فى حجرة لا تبرحها
الا ان تكره على ذلك اكراها ، كما يشقون بهذا النعيم العظيم
يستمتع به الضابط وزوجته النبيلة فى طرف من اطراف الدار .
كانا يستخفيان بسعادتهما اول الامر فيتمتعان من وراء الأبواب
المغلقة والأستار المسدلة ، ولكن السعادة جمحت بهما حتى
تجاوزا القصد ، واكبر الظن ان شقاء الاشقياء ، هو الذى اذكى
سعادة السعداء . وكأن الزوجين السعيدين قد رأيا فى
اعتكاف تلك المسكينة وبكائها المتصل ، وفى هذه الوجوه العابسة
الكئيبة من حولها ، وفى خفوت تلك الأصوات التى كانت تملأ
الدار فرحا ومرحا ، وفى سكون تلك الحركات التى كانت تملأ
الدار بهجة وسرورا ، كأنهما رأيا فى هذا كله احتجاجا على
ما أتيح لهما من سعادة ، وانكارا لما سيق اليهما من نعيم ،
فقبلا التحدى ، واظهرا ما كانا يضمران ، واعلنا ما كانا يسران ،
وظهرت سعادتهما وقحة ، مسرفة فى الوقاحة ، لا تحتفظ
ولا تحتشم ولا ترجو لشىء وقارا ، فالقبل تختلس فى هذه

الزاوية أو تلك في غير احتياط أول الأمر ، ثم هي لا تختلي ولا يستخفى بها ، وانما يتهاداها الزوجان امام هذه الكافية البائسة ، وبمنظر من هذين الغلامين الشقيين ، وغير بعيد من هذه الأم التعسة المحزونة ، ثم تتجاوز القصة حسودها ، ويتعمد الزوجان المفتونان ايذاء هذه المرأة الكئيب ، فينتهزان الفرص ليظهرا لها سعادتهما بشعة ليس لها حظ من تحفظ او استحياء . ويتحدث الناس ذات يوم بأن هذه الأم البائسة عليلة لا تخرج من حجرتها ولا تترك فراشها ، ثم يأتي النبأ ذات صباح بأنها قد فارقت الحياة ، فاراحت واستراحت وتركت في قلب ابنائها سعيرا أي سعير . وقد استقرت هذه الأم البائسة في قبرها المتواضع من وراء النهر ، وجلس صاحب الدار للمعزين يستقبلهم كما تعود الناس أن يفعلوا ، وقد مرت الليلة الأولى كما تعودت ليالي العزاء أن تمر : أقبل المعزون فسلموا وجلسوا وسمعوا القرآن ، وانصرف فوج منهم ليخلفه فوج آخر ، ثم ختمت القراءة حين أوشك الليل أن ينتصف . ثم أقبل اليوم الثاني وأقبل معه القراء يتلون القرآن ، وأقبل الناس يعزون ويستمعون ويخوضون في مختلف الأحاديث ، وانهم لفي ذلك بعد أن صليت العصر ، واذا امرأة شابة تخرج من الدار وتتوسط جمع الناس هادئة مطمئنة رزينة الخطو ، سافرة لم تلق على وجهها نقابا ، وقد اخذت في احدى يديها حقيبة صغيرة ، فلما توسطت الجمع وجم الناس ، وهم صاحب الدار أن ينهض ولكن الوجوم اخذه هو ايضا فاثبته في مكانه ، وارتفع صوت تفيدة هادئا رزينا ، فقطع المقرئ قراءته واستمع لها الجمع كأن على رؤوسهم الطير ، واذا هي تقول : « من ظن منكم أنه اقبل للتعزية والمجاملة فليغير ذات نفسه ودخيلة ضميره ، فليس هذا حفل عزاء وانما هو حفل فرح وابتهاج . ان هذا الرجل الذي تعزونه قد قتل امرأته وابتهج بموتها ،

لم يرع حرمتها ، ولم يرع حياء ابنته الكافية ، ولم يرع سنا غلاميه الصغيرين ، وانما ازدرى هذا كله في سبيل سعادته بزوجه الجديدة ، فكان يداعبها ويلاعبها ، وينال من مداعبتها وملاعبتها في الجهر ما لا يناله الرجل الكريم ذو المروءة الا سرا ، وكنت في القاهرة لا اعلم من ذلك شيئا ، فلما اقبلت لدفن امي سمعت ، فأنكرت اذناي ولم يصدق قلبي ، ولكني اشهد واشهدكم اني رأيت ورأى اخوتي ، وفيهم كافية وصبيان ، هذا الرجل يداعب امرأته الشابة ويلاعبها راضيا مغتبطا مسرورا ولم يمض على دفن امنا الا يوم وبعض اليوم ، فان رأيتم بعد ذلك ان هذا الرجل محتاج الى تعزيتكم فاقيموا والا فانصرفوا راشدين » .

ثم تحولت عن الجمع فلم تدخل الدار ، وانما اخذت طريقها الى المحطة لتركب القطار الذي يحملها الى القاهرة .

ولست ادري ماذا كان من أمر الجمع المحتشدين بعد هذه الفضيحة ، ولكني اعلم ان استقبال المعزين لم يبلغ ايامه الثلاثة ، وان هذا الضابط التركي القديم من ضباط الجيش لم يستطع ان يقيم في المدينة الا ريثما يدبر أمر سفره ، وانه ارتحل ذات يوم بما كان يحيط به من نعيم وجحيم ، فانقطعت بينه وبين المدينة الصلات والأسباب ، لم يسمع اهل المدينة عنه شيئا ولم يسمع هو منهم شيئا .

٣

ومضت الحياة في طريقها هادئة مطمئنة ، تعبث بالناس ويعبث الناس بها ، ويمضي ما يقبل من احداثها على آثار ما ادبر من الخطوب . وقد هاجرت اسرة الصبي من المدينة الى اعلى الارض ، وهاجرت اسر أخرى الى ادنى الأرض ، وشغلت كل اسرة بنفسها عن غيرها ، وشغل كل واحد من ابناء الاسرة

الواحدة بشأنه الخاص عن شؤون أهله وذويه ، ومضت أعوام تبعتها أعوام ، وبلغ الصبي طور الشباب بعد أن خاض إليه غمرات الخطوب ، ولكنه يحس ذات مساء بين درسين من دروس الجامعة القديمة يدا تمس كتفه ، وصوتا يمس أذنه ، ويقع في نفسه هذه الجملة : « ألا تذكرني ! لقد كنت معك في الكتاب ، أنسيت العفريت ! » .

بلى ، لم أنس العفريت وهيهات أن أنساه ، وقد استأثر من قلبي ذلك الناشئ بمكان ممتاز لم يبلغه أحد من إخوته كما لم يبلغه أحد من رفاق الصبا أولئك الذين عرفتهم في الكتاب أو عرفتهم خارج الكتاب ، أولئك الذين اتصلت بينهم وبيني أسباب المودة أيام الصبا فكانت عشرتي لهم طويلة أو قصيرة . بلى لم أنس العفريت ، وقد حدثتني نفسي غير مرة حين هبطت إلى القاهرة لأطلب العلم في الأزهر الشريف ، بأن من الممكن أن ألقاه أو ألقى أخاه فأجدد من أسباب المودة ما رث ، وأصل منها ما انقطع ، وأنقل من صباي في المدينة إلى القاهرة طرفا أستبقيه وأنميه ، وأجد في استبقائه وتنميته رضا القلب ومتعة النفس وسعادة الضمير ، ولكني اختلفت إلى الأزهر أعواما وأعواما ، وعرفت فيه كثيرا من الفتية والشباب والشيوخ ، دون أن ألقى العفريت أو أخاه أو أسمع عنهما قليلا أو كثيرا ، ولم أبح لنفسي أن أسأل عنهما أحدهما أو كليهما ، ولو قد سألت لكان من الممكن أن أصل إلى هذا الأزهري الذي كنت أحفظه القرآن أيام الصبا ، وأن أصل من طريقه إلى أخيه العفريت . لم أبح لنفسي أن أسأل ، وما أقل ما كنت أبيح لنفسي السؤال ! وما أكثر ما صرفني الحياء عن السؤال والاستقصاء !

ثم اختلفت إلى الجامعة عاما وعاما وعاما ثالثا ، ولقيت من الطلاب من درس في الأزهر ، ومن تعلم في المدارس المدنية على اختلافها

وخطر لي غير مرة أن أسأل عن العفريت ما خطبه وأين يكون ؟ ولكني لم أبح لنفسي هذا السؤال ، فحفظت في قلبي من ذكر العفريت ما كنت أردده على نفسي حينا بعد حين ، أختصها به ولا أظهر عليه أحدا من الناس ، حتى أقبل علي العفريت ذات مساء فمست يده كتفي ، ومس صوته أذني ، ومست نفسه نفسي ، واستأنفنا في الشباب حياتنا كما ألفناها في الصبا . كان حديث عهد بالجامعة ، يدخلها في أول العام الذي كنت أريد أنا أن أتركها في آخره ، فكنا نجتمع وجه النهار ، لا في داره تلك ، وأين كنا من داره تلك ! ولكن في تلك الحجرة المتواضعة التي كنت آوي إليها أثناء الطلب ، ولم يخطر له قط أن يدعوني إلى داره ، ولم يخطر لي قط أن أسأله عن هذه الدار ، ولقد هممت أن أسأله عن أخيه فأجابني من طرف اللسان ، فلما استزدته راغ مني بالجواب وانتقل إلى حديث آخر ، فأحسست أنه يستحي من أسرته ، فلم أسأله عنها بعد ذلك . كان قد تخرج في إحدى المدارس الفرنسية ، وظفر بشهادة الثانوية والتحق بالجامعة ، وكنت أحاول أن أتعلم هذه اللغة الأجنبية وأبذل في ذلك جهودا مختلطة أشد الاختلاط ، منها الموفق ومنها غير الموفق ، وكان هو مشغوفا بالترجمة من هذه اللغة إلى اللغة العربية ، فكان يقرأ علي بعض ما كان يترجم ، وكان يقرأ لي ما كنت أريد أن أعرف من الأدب الفرنسي . وقد أنسى أشياء كثيرة ، ولكني لن أنسى أنه قرأ لي أساطير لافونتين ، وقصة « كانديد » وأحاول أن أذكر كيف قضينا أول الليل بعد خروجنا من الجامعة ذات يوم وأين قضيناه ، ولكني لا أجد إلى ذلك سبيلا ، وإنما أذكر أني صرفت خادمي وبقيت معه على أن يردني إلى داري بعد أن نفرغ مما أردنا إليه ، ولست أعرف ما هذا الذي أردنا إليه ، ولكني أعرف أن الليل بلغ نصفه ، وأنا كنا بعيدين عن داري قريبين من داره في حي

من الاحياء الوطنية المتواضعة ، فقال لى فى صوت منكسر : « لننفق سائر الليل معا فنقرا ما اتفقنا السهر ، ثم نعود الى دارك فى ضحى الغد » . وقد اجبته الى ما اراد ، فدرنا فى حارات ملتوية وانتهينا الى دار متواضعة حقيرة ، واوينا من هذه الدار الى حجرة بائسة قد القى عليها حصير بال ، والقى على الحصير وسادة ولحاف ، فى هذه الحجرة قرأنا الى جزءا عظيما من « كانديد » ، ولم ننم الا بعد ان جاوز الليل ثلثيه ، فلما كان ضحى الغد عدت الى دارى واستبقيته معى الى آخر النهار ، وفى تلك الليلة فهمت مصدر هذا الحياء الذى منعه ان يتحدث الىّ من امر اسرته بشىء .

ومضت اشهر الصيف التى يفترق فيها الطلاب ، واقبلت اشهر الخريف التى يلتقى فيها الطلاب ، ولقيت صاحبى فيمن لقيت ، ولكنه كان لقاء قصيرا ، فقد سافرت الى فرنسا فى خريف ذلك العام ، وودعت صاحبى فى القطار ، واشهد ما نسيته اثناء ذلك العام الذى قضيته فى فرنسا ، واشهد لقد عدت الى مصر حين دعتنا الجامعة الى ان نعود قبل ان نتم الدرس وفى نفسى انى ساجد عند صاحبى هذا عزاء عن هذا الدرس المقطوع ، ولكنى اصل الى القاهرة ، واسال عن صاحبى ، فاعلم ان حمى التيفوئيد قد اسلمته الى الموت اثناء الصيف .

وما اريد ان اصور للقارىء ما وقع فى نفسى من حزن ولوعة ، فانى لم اكتب هذا الحديث لشىء من هذا ، وانما اذكر انى سعيت مع رفيقين لى ذات يوم بعد ان صليت العصر الى قرافة المجاورين حيث قيل لى انه دفن ، وانى انفقت مع رفيقى وقتا طويلا وجهدا ثقيلا التمس قبره لنهدى اليه التحية ولنضع عليه شيئا من زهر ، فلم اهتد الى هذا القبر ، فعدنا باليأس وقد القينا التحية الى قبور القرافة كلها ، والقينا الزهر على قبر ما فى قرافة المجاورين ، وكنت كئيبا كاسف البال

مظلم النفس معقود اللسان ، وكان احد رفيقىّ يعول على وينشدنى قول الشاعر العربى القديم :

لقد لامنى عند القبور على البكا
رفيقى لتذراف الدموع السوافك

فقال اتبكى كل قبر رأيته
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له ان الشجى يبعث الشجى
فدعنى فهذا كله قبر مالك

****

٦

صفاء

« كان ذلك ممكنا فى تلك الأيام السود ، فأما الآن فقد يسر الله الأمور ، وأتاح لنا أن نخرج من ظلمة البؤس والشقاء ، الى نور النعيم والرخاء ، فلست أحب أن أخوض ، ولا أن تخوضى فى هذا الحديث » . وهمت حنينة أن تتكلم ولكن ابنها نصيفا أعرض عنها بوجهه ، ونأى عنها بجانبه ، واشعل سيجارته فى شىء من أنفة ، ونهض فى شىء من كبرياء ومضى أمامه فترك الحجرة وترك الدار كأنه لم يخلف فيهما أحدا . وظلت حنينة صامتة مبهوتة ، ثم كفكفت دموعا كانت تريد أن تسيل ، ثم حزمت أمرها وقدرت فى نفسها أنها ستراجع ابنها فى هذا الحديث ، ونهضت فأقبلت على أعمال الدار كأن لم يكن بينها وبين ابنها شىء .

وقد استوفيت فيما أظن ما ينبغى أن يستوفيه الكاتب حين يريد أن يستأنف قصة خطيرة أو يسيرة ، فألقيت الى القراء هذه الجملة الغامضة التى لا يذكر فيها الفاعل ولا المبتدأ الا متأخرا ، لأثير فى نفوسهم هذه الغرابة التى تدعو الى الاستطلاع ، ثم ذكرت بعد هذه الجملة اسم حنينة وابنها نصيف لتزداد حاجة القراء الى هذا الاستطلاع ، ثم فرقت بين الأم وابنها على هذا النحو الغريب المريب ، فبينهما حديث لا يريد الفتى أن يتصل وتحرص الأم على أن يتصل ، وهذا الحديث يمس الماضى المنكر الذى خرجت منه الأسرة ، ويريد الفتى أن تنساه ، وتريد الأم أن تفى له وتحرص عليه ، وآية

ذلك أنها لتكفكف الدمع وتقدر فى نفسها أنها ستعود الى الخوض فيه متى لقيت ابنها حين يقبل المساء ، أو حين يسفر الصباح ، وأكبر الظن أنها تؤثر أن تتحدث الى ابنها فى أول النهار حين يجلس الى فطوره هادىء النفس مستريح الجسم فارغ البال ، لم يتكلف من أثقال يومه الجديدة شيئا ، ولم يتح له بعد أن يذكر من أثقال أمسه القديمة شيئا ، ذلك خير من التحدث اليه فى المساء ، فهى قلما تخلو اليه فى المساء لأنه يروح الى داره عجلا ، ليصيب شيئا من طعام مع الأسرة كلها ، ثم ينصرف عنها عجلا ليلقى أترابه وأصحابه ، فيسمر معهم شطرا من الليل ، ويعود وقد بسط النوم جناحيه على الأسرة كلها فأغرقها فى سبات عميق .

ومن حق القارىء بعد هذا كله أن يعرف حنينة ونصيفا ، وأسرة حنينة ونصيف ، وهذا الماضى القاتم الذى يكره الفتى أن يستبقى منه شيئا ، وتحرص الأم على أن تستبقى منه بعض الأشياء .

ولست أكره أن أؤدى للقارىء حقه فى هذا ان قبل أن ينتقل معى فى الزمان والمكان جميعا ، وما أطلب اليه أن ينتقل معى الى زمان مسرف فى القدم ، أو الى مكان مسرف فى البعد ، وانما نريد أن نعود الى أول هذا القرن ، وأن نترك القاهرة الى مدينة من مدن الأقاليم فى مصر الوسطى . فقد ينبغى لكل قصة أن يكون لأحداثها زمان ومكان يختارهما الكاتب أو تختارهما الأحداث نفسها . والشىء الذى أؤكده للقارىء هو أنى لم أختر ولم أكن أستطيع أن أختار زمان هذه القصة ومكانها ، كما أنى لم أختر ولم أكن أستطيع أن أختار أشخاص هذه القصة وأحداثها ، وانما اختارت طبيعة الأشياء هؤلاء الأشخاص ، وأجرت طبيعة الأشياء عليهم ما أجرت من الأحداث

وارادت ان يكون هذا فى آخر القرن الماضى واول هذا القرن ، ولن اشهد القصة واتأثر بها اشد التأثر واعمقه ، وان ادخرها فى نفسى لشىء لم اكن اعرفه حين شهدت القصة وادخرتها ، وقد اخذت اعرفه الآن حين بدأت املى هذا الحديث ، فانا انما شهدت القصة وادخرتها لأتحدث بها الى قراء هذا السفر ، بعد أن مضى على احداثها ، ما يقرب من نصف قرن .

بل أكاد اقطع بأنى لم اختر ، ولم اكن استطيع ان اختار ، ان اتخذ هذه القصة موضوعا لهذا الحديث ، وانما هى التى اختارتنى لتصل من طريقى الى القراء ، ولست استطيع ان ابين لذلك سببا ، لأنى لا استطيع ، والقارىء نفسه لا يستطيع ، ان اسأل القصة عن السبب الذى من اجله اختارت أن تذاع فى هذه الأيام ، والذى من اجله اختارت أن تذاع من طريقى انا ، ومن طريق هذه المجلة التى اكتب فيها .

وانما ارى انى قد فرغت اياما واياما ، لموضوع من موضوعات الادب الفرنسى ، وجعلت ادرسه واستقصيه لأتخذه موضوعا لهذا الحديث ، وبلغت من ذلك اكثر ما كنت اريد ، ان لم اكن بلغت كل ما كنت اريد ، وجلست الى صاحبى لأملى عليه ما قدرت املاءه ، ولكن صاحبى لا يسمع منى حديثا عن شىء يتصل بالأدب الفرنسى من قريب او بعيد ، وانما يسمع منى بدء هذا الحديث ، ويهم ان يراجعنى ، كما همت حتى ان تراجع لصيقا . ولكنى أعرض عنه بوجهى ، والتى عنه بجانبى ، اشعل سيجارتى فى شىء من حزم ، وامضى فى الاملاء ، فيمضى هو فى الكتابة ، ويظهر امامى اشخاص هذه القصة مزدحمين اشد الازدحام ، ملحين اعظم الالحاح ، كلهم يريد ان يسبق الى مكانه من هذا الحديث ، كأنما طال عليهم النوم حتى سئموه ، وثقل عليهم النسيان حتى ضاقوا

به ، فهم يريدون ان يستيقظوا ، وهم يريدون ان اذكرهم انا ، وان يذكرهم القراء ، وان يستردوا بذلك شيئا من حياة ، وان كانت حياتهم تلك الاولى لأهون واشقى من ان يفكر فيها اصحابها ، ومن أن يحرصوا على ان يستردوا منها نصيبا قليلا او كثيرا .

وهؤلاء الاشخاص كثيرون بعض الكثرة ، فلابد من ان اصطنع شيئا من النظام الحازم لأردهم الى بعض القصد ، ولأظهرهم فى اماكنهم المقسومة لهم من هذا الحديث ، واماكنهم هذه لم اقسمها انا لهم ، وانما قسمتها لهم حياتهم الاولى نفسها ، فهم يؤلفون اسرتين قبطيتين من اسر الريف ، كانتا تعيشان متجاورتين قد انشأ الجوار بينهما ما ينشىء عادة بين الجيران من المودة والالفة ، ومن العشرة المتصلة والاختلاط الدائم فى غير تكلف ولا عناء ، ومن هذا الاشتراك فى لذات الحياة وآلامها ، وفى مسرات الحياة ومساءاتها ، وفى هذه الاحداث التى تحدث ، والخطوب التى تلم ، والنوائب التى تنوب .

وكانت اسرة المقدس ميخائيل تادرس فى دار ليست بالمسرفة فى السعة ، وليست بالمسرفة فى الضيق ، وانما هى دار متوسطة ، تأتلف من حجرات قليلة ، لا يظهر عليها الثراء ، ولا يظهر عليها الفقر ، ولا يظهر عليها ما يلفت اليها احدا . كانت دارا متواضعة وان لم تكن حقيرة ، وكانت تقوم فى اول الشارع معا يلى القناة على منحدر يسير يكلف الناس اليها قليلا من الجهد ، فينحدر اليها ان جاء من هذه الناحية ، ويصعد اليها ان جاء من تلك الناحية ، ولا يسعى اليها سعيا هينا على كل حال ، وكان المقدس ميخائيل صاحب تجارة يسيرة هينة ، قد اتخذ له حانوتا يبعد عن داره بعض البعد ، يبيع فيه سقط المتاع من هذا الطراز الذى يتخذ الفقراء منه

عقودا يتحلى بها النساء والفتيات ، ومن هذا الزجاج الملون الذى يتخذ النساء منه أساور أو دوائر مفرغة يدخلن فيها سواعدهن ، او يدخلنها فى سواعدهن ، ويبهرن القمص كما يبهرن الرجال بألوانها الزاهية وبرنينها الحلو ، وشيئا من الأقمشة الرخيصة التى يتخذ منها نساء الريف ثيابهن حين يتفضلن ، وزينتهن حين يتبرجن .

وكانت لحانوته شهرة خاصة بهذه العصابات المطرزة التى كان النساء يدرنها حول رؤوسهن ، فيفتن بها الرجال ويسحرن بها عيون الشباب ، وكان المقدس ميخاييل يفيد من تجارته هذه اليسيرة ما يتيح له ان يكفل لأهله حياة ان لم تكن رخية كل الرخاء فلم تكن ضيقة كل الضيق ، وانما كانت شيئا بين ذلك ، يسمح لهذه الأسرة أن ترى نفسها من الطبقة المتوسطة وأن تطمح الى ما تطمح اليه هذه الطبقة من الآمال التى كانت فى ذلك الوقت متواضعة أشد التواضع .

ولم تكن هذه الأسرة ضخمة ولا كثيرة العدد ، وانما كانت تأتلف من ميخاييل ، وزوجه حنينة ، وابنهما نصيف ، وابنتهما صفاء ، وواضح أن هذا الاسم لم يكن ينطق على هذا النحو الفصيح ، وانما كان ينطق به مقصور الألف لا ممدودها ، وكان النطق به يثير فى نفوس السامعين أنه مستعار من تلك القذائل المعدنية التى كان النساء يصلنها بشعورهن ويرسلنها على ظهورهن ، ويسمع لها حين يقمن ويقعدن ويسعين صليل يعجب الآذان .

وقد طمع ميخاييل أن يرفع ابنه عن المنزلة التى كتبت له هو فى الحياة ، فلم ينشئه فى التجارة ليخلفه فى الحانوت حين تقعد به السن ، وانما أرسله الى المدرسة المدنية ، بعد أن اختلف الى الكتاب القبطى عاما وبعض عام ، وأضمر فيما بينه وبين نفسه الا يكتفى بالمدرسة الابتدائية ، وانه يرسله اذا

استطاع الى القاهرة ليتعلم فى بعض مدارسها ، وليكون موظفا من موظفى الحكومة ، وليسلك بنفسه طريقا جديدة غير الطريق التى سلكها هو وسلكها ابوه من قبله .

وطمعت حنينة فى أن ترفع ابنتها عن المنزلة التى قسمت لها هى فى الحياة ، فارسلتها الى « المعلمة » كما كانت الأمهات فى الطبقة المتوسطة يرسلن اليها بناتهن ، ليتعلمن عندها فنونا من التطريز والتدبيج ، والتأنق فى التفصيل وصناعة الأزياء .

وقد اختلف الصبى الى المدرسة ، واختلفت الصبية الى المعلمة ، ورضيت الأسرة عن نفسها وعن تربيتها لابنيها أعواما ، وظفر الصبى بالشهادة الابتدائية بعد جهد ، واخذت الصبية من فنون المعلمة ما استطاعت أن تأخذ ، ونظرت الأسرة فاذا هى مضطرة ان ترسل الصبى الى القاهرة ، والى أن تمسك الصبية فى الدار ، والله يعلم ما تكلف المقدس ميخاييل من الجهد ليدبر ما يحتاج الفتى اليه من النفقات ، وما احتملت حنينة من الحزن لفراق ابنها الوحيد ، وقد الحق الفتى بمدرسة التوفيقية ، فاقام فيها ما شاء الله أن يقيم ، عاما وعاما وعاما دون أن يصيب فيهما نجحا ، وانما هى السنة الأولى يقيم فيها العام بعد العام ، ثم تضطر المدرسة الى فصله لكثرة ما أخفق ، فيلتحق بالمدرسة القبطية الكبرى التى كانت فى ذلك الوقت تتلقى من تفصلهم المدارس الحكومية من الشباب المخفقين ، او من تحول السن بينهم وبين الالتحاق بالمدارس الحكومية ، او من تقصر ايدى آبائهم عن اجور التعليم فى مدارس الدولة ، وتطول مع ذلك آمال آبائهم ، فيأبون الا ان يتعلم أبناؤهم حتى يبلغوا الشهادة الثانوية ، لعلهم أن يجدوا لأنفسهم مكانا فى مدرسة من المدارس العالية ، أو عملا فى ديوان من الدواوين .

وقد اقام نصيف فى المدرسة الحرة عاما وعاما ولكنه لم يصب فيها نجحا كما لم يصب فى المدرسة الحكومية نجحا ، وتقلت

النفقة على ابيه ، وثقل الحزن على امه ، وضاق الفتى بأبيه وامه ونفسه أيضا ، واذا هو يقترح على ابويه ذات عام ان يتحول عن التعليم الثانوى الذى لم يخلق له ، الى تعليم آخر يسير قريب ، لا يحتاج الى كثير من ثقافة ، ولا الى الحاح فى عمل ، ولا الى فضل من جهد ، ولا الى طويل من وقت ، وانما هو عام او بعض عام ، ثم يتقدم الطالب الى الامتحان ويظفر بالدبلوم ، ويشغل منصبا من مناصب الدولة . وكذلك التحق الفتى بمدرسة التلغراف ، وما هى الا ان ينفق فيها الفتى عاما او اقل من عام ، ثم يتقدم للامتحان فيصيب ما اراد من نجح ، ويعود الى اهله ومعه الدبلوم قد لفه لفا أنيقا ، ووضعه فى حرز أنيق اتخذ من الصفيح ، وجعل الاب ينظر الى الدبلوم يحاول ان يقرأ ما فيه ، وجعلت الام تنظر الى الدبلوم تعجب بزينته ، واختصم الابوان بعض الاختصام أيهما يحتفظ بهذه العلبة من الصفيح ، أتدسها الام بين ثيابها ، أم يخفيها الاب فى درج من ادراج مكتبه القديم ؛ ولكن المهم هو ان المقدس ميخائيل كان قد بلغ من الجهد أقصاه ، فانفق اكثر مما كانت تجارته تغل عليه ، واحتمل من المشقة اكثر مما كانت سنه تستطيع ان تحتمل ، وباع فى سبيل هذا الفتى ما كان عند زوجه من الحلى المتواضع ، واضطر الاسرة الى شىء من الفقر الضيق البغيض الثقيل الذى لا يطاق ، لولا شىء من فسحة الأمل . ولم يدرك الفتى ما ادرك من نجح حتى كان المقدس الشيخ مضطرا الى ان يقعد فى داره ، وينتظر الرزق من هذا المرتب الضئيل الذى كانت الدولة تجريه حينئذ على الموظفين فى البرق اول ما ينهضون بأعمالهم .

وكانت الدولة بخيلة حقا فى تلك الايام ، فقد كان حامل الدبلوم يلحق بمكتب من مكاتب البرق على سبيل التجربة والتمرين ، ويؤجر فى اثناء ذلك ثلاثة جنيهات فى الشهر ،

لا تحسب له جملة ، وانما تحسب له مياومة اثناء التمرين ، عشرة قروش فى اليوم لا تزيد . ولم يكن حامل الدبلوم حرا فى اختيار مكتب البرق الذى يعمل فيه ، ومتى كان عمال الدولة وموظفوها احرارا فى اختيار المكاتب التى يعملون فيها ؟ انما كانت الدولة ترسل هؤلاء الموظفين والعمال حيث تشاء وحيث يقتضى النظام ان يرسلوا ، فأرسل الفتى الى أقصى الصعيد ، واقامت اسرته فى ادناه ، وجعل الفتى يقبض اجره آخر الشهر ، فيرسل نصفه الى اسرته لتعيش ، وينفق نصفه الآخر على نفسه . وعلم الفتى وعلمت اسرته ان الآمال لا تصدق اصحابها دائما ، وانما تكذبهم فى كثير من الاحيان ، فقد ظفر الفتى بالدبلوم وشغل منصبا من مناصب الدولة ، واصبح فردا ممتازا من هذه الطبقة الممتازة ، طبقة الموظفين ، ولكنه ما زال فقيرا بائسا محتاجا ، وما زالت اسرته متوسطة ترد الى الفقر يوما بعد يوم ، وتدفع الى الضيق عاما بعد عام ، والفتى بعد ذلك فرد ممتاز من طبقة ممتازة ، والامتياز يكلف اصحابه كثيرا من المال ، فلابد من ان يعيش الفتى بين اترابه عيشة ملائمة ، ومن ان يتخذ من الزينة ما يلائم طبقته ، ومن ان يحيا حياة لا ينظر اليها اترابه فى شىء من الاستخفاف به او الاشفاق عليه ، وكان هذا كله يرهق الفتى من امره عسرا ، وربما اضطره بين حين وحين الى الا يرسل الى ابويه ما تعود ان يرسل اليهما من النقد ، او ان يرسله اليهما منقوصا ، فكان هذا يحفظ الاسرة ويغيظها ويشقيها ، فلم تكن حاجاتها الى الحياة اللائقة بأقل من حاجة الفتى ، والفتى وحيد ، وهى اسرة مؤلفة من أشخاص ثلاثة ، فحقها ان يرسل اليها اكثر المرتب ، وان يكتفى الفتى بأقله ، فكيف اذا لم يرسل اليها الا اقله ! وكيف اذا لم يرسل اليها شيئا ! وهى بعد ذلك قد أفنت عمرها وجهدها وكل ما ملكت فى سبيل هذا الفتى ، فانظر الى الابناء

كيف يجحدون حقوق الآباء ، وانظر الى الشباب كيف يكفرون بنعمة الشيوخ ، وانظر الى هؤلاء الفتيان الناشئين كيف يؤثرون انفسهم بالخير ويختصونها باللذات ويتركون آباءهم وامهاتهم واخواتهم يشقون بالنقص في الاموال والثمرات بل يشقون بالبؤس والجوع والحرمان . وكذلك انفقت الاسرة بعد نجح ابنها في الامتحان وظفره بالمنصب اعواما ، ذاقت فيها من البؤس المادي والمعنوي مالم تذقه حين كان الفتى صبيا يختلف الى المدرسة الابتدائية ، أو غلاما يختلف الى المدارس في القاهرة .

اما الاسرة الاخرى فاسرة المعلم يونان . كان زعيمها كاتبا متواضعا في دائرة من دوائر الترك ، ينفق نهاره عاكفا على دفاتره ، أو محاسبا للناظر ، أو مراقبا للمعاون ، ويعود الى أهله آخر النهار راضيا عن نفسه ولكنه متعب مكدود ، فلا يكاد يصيب معهم شيئا من الطعام ويسمر مع جاره شيئا من سمر ، حتى يأوي الى مضجعه وقد بلغ الاعياء به اقصاه ، ثم لا يكاد الصبح يتنفس حتى يراه في الطريق العامة غاديا على عمله في الدائرة أو في الحقول . وكان الاجر الذي يصيبه من هذا العناء قليلا ضئيلا لا يكاد يقيم الأود لاسرة تالفت من ثلاثة اشخاص ، هم المعلم يونان ، وزوجته مرجانة ، وابنهما عبد السيد .

وكان المعلم يونان رجلا متواضعا ، لا يرفع نفسه عن طبقته ، ولا يحاول ان يرفع ابنه عن هذه الطبقة ، وانما حاول ان يعلم ابنه مهنته هو ، ليكون كاتبا في الدائرة ، كما كان هو كاتبا في الدائرة ، وكما كان ابوه من قبله كاتبا فيها ايضا . وكان اقصى همه ان يحسن الصبي الاخذ عنه والاقتداء به ، حتى اذا ادرك اول الشباب استطاع ان يعينه على عمله ، وان يلتفت اليه المأمور لعله ان يرضى عنه ويعطف عليه ، فيأجره

قرشين أو قروشا في اليوم تعين الاسرة على احتمال اعباء الحياة . ولكن الصبي لم يكن ذكي القلب ، ولا محبا للعمل ، وانما كان كلا خامدا ، يؤثر اللعب حين تسنح له فرصة اللعب ، فان لم تسنح له آثر حياة هادئة هي الى الخمول اقرب منها الى اى شيء آخر ، وكان ذلك يغيظ اباه ويحفظه ويدفعه الى ان يقسو عليه احيانا ، ولكنه كان وحيد ابويه ، فكان المعلم لا يعنف به الا ارق له ، ولا يشق عليه الا ليرفق به .

والسن تتقدم بالمعلم حتى يحس الضعف عن النهوض باعماله ، والفتى يتقدم في العلم بمهنة ابيه متثاقلا متثاقلا ، حتى اذا اضطر الشيخ الى القعود في داره كان الفتى اجهل واكسل من ان يقوم مقامه ، فلم تستبقه الدائرة الا رعاية لحق ابيه ورفقا باسرته ، ولم تمنحه من اجل ذلك الا نصف ما كانت تمنح اباه من الاجر .

واضطرت مرجانة ان تبرح الدار ، وتسعى بعض السعي على شيخها القاعد لرزقه ، وعلى ابنها الخامد لعيشه ، فجعلت تسعى الى القرى القريبة تشتري من اهلها ما يريدون ان يبيعوا من جبنهم وزبدهم ، تحمل في ذلك قصعة ضخمة ، وتغطيه بشيء من العشب الاخضر الرطب يحفظ عليه رطوبته ويجلب اليه العيون ، وتطوف بذلك على بعض البيوت ، فتبيعه فيها بما يتيح لها شيئا من ربح يتم لزوجها وابنها ما يحتاجان اليه .

وقد مضت الاسرتان المتجاورتان في طريق واحدة الى الضيق ، ثم الى الضيق الشديد ، ثم الى الاعدام والحرمان ، فازدادت الصلات بينهما قوة ، وفرغ الشيخان القاعدان للبطالة والحديث ، وجعلت مرجانة وحنينة تلقيان حين يسفر الصبح وحين يتقدم النهار ، تتقارضان المنافع وتتعاونان على اثقال الحياة ، وتتجاذبان اطراف الحديث كما يقال ، وجعلت صفاء (بالفها الممدودة او المقصورة) تلقى عبد السيد يغدو الى عمله

في الدائرة ، وحين يروح من عمله الى الدار ، فيكون بينهما ما يكون بين الفتيان من هذه الأحاديث الفارغة ، التي لا تؤدي شيئا ولا تدل على شيء ، وانما تشغل أصحابها عن أنفسهم ، وتلهيهم عن آمالهم .

ولكن الشاب ماكر ماهر ، ينتهز الفرص ، ويختلس الوسائل اختلاسا ، فهو يشيع في هذه الأحاديث الفارغة بين حين وحين ما يريد أن يملأها ، فيعجزه ذلك أول الأمر ، ولكنه لا يعرف العجز ، ولا اليأس ولا الاخفاق ، وانما هو ملح دءوب ، يخطئه النجح هذه المرة فلا يرده ذلك عن استئناف المحاولة ، وهو يسلك الى غايته طرقا مختلفة ملتوية ، لا يحسن العلم بها الا الذين محصتهم الحياة وعلمتهم التجارب . وأين الفتيان القادرون من تمحيص الحياة وتعليم التجارب ! كلمة تنطق بها صفاء ، فاذا الشباب يجري فيها عذوبة غير مألوفة ، ويوقعها من أذن عبد السيد وقلبه موقعا غير مألوف ، وحركة يأتي بها عبد السيد ، فاذا الشباب يجري فيها رشاقة غير مألوفة ، ويوقعها من عين صفاء وقلبها موقعا غير مألوف ، واذا الفتى مشغول بهذه الكلمة العذبة ، يريد أن تتكرر وأن يضاف اليها أمثالها ، واذا الفتاة مشغولة بهذه الحركة الرشيقة ، تريد أن تتكرر وأن يضاف اليها أمثالها . واذا كلاهما مشغول بصاحبه حين يلقاه ومشغول بصاحبه حين ينأى عنه ، ومشغول بصاحبه حين يقبل الليل ، ومشغول بصاحبه حين يسفر النهار ، واذا اللقاء الذي كاد يكون بينهما على غير موعد وعلى غير نية ، قد جعل يصبح شيئا تدبر له الخطط وتنتقى اليه الوسائل ، واذا الحديث الذي كاد يكون بينهما فارغا ليس وراءه شيء ، قد جعل يصبح مليئا وراءه كثير من الأشياء ، واذا الأسرتان تلحظان أن لهذين الفتيين شأنا ، فلا تنكران ولا تعرفان أول الأمر ، لم يتشمم قلوب الشيوخ لهذه الصلة

الناشئة بين هذين القلبين الشابين ، ثم يتحدث القمص ، فيختال الى حنينة ، ويتحدث المعلم يوقان الى مرجانة ، ولا تقول احدى الأسرتين للأخرى شيئا ، وانما تنتظر كلتاهما أن تكون الأخرى هي التي تبدأ الحديث . والشباب لا يحفل بما يثور في نفوس الشيوخ من خواطر ، ولا بما يضطرب في عقولهم من تفكير ، وانما هو ماض لغايته لا ينظر الى وراء ، وانما ينظر الى أمام ، والى أمام دائما ، حتى لا يلفت الأسرتين وحدهما الى نفسه والى ما أحدث من صلات ، وانما يلفت أسرا أخرى من الجيران . وهنالك ينتبه الشيوخ ، فتتحدث مرجانة الى حنينة ، ويتحدث المعلم الى القمص ، وتصبح الخطبة شيئا مقررا متفقا عليه .

وتضيف مقيم في قريته تتقاذفه المدن في أعلى الأرض وفي أسفلها ، وقد ثبت في منصبه فلم يقبض أجره مياومة ، وانما أصبح موظفا بالمعنى الصحيح الدقيق ، وزيد مرتبه حتى بلغ أربعة جنيهات ونصف جنيه ، يحسم منها المعاش آخر الشهر ، ولكن مرتبه قد زيد على كل حال ، الا أنه لم يزد وحده ، وانما زادت معه نفقات الفتى وتكاليف حياته بعد أن أصبح موظفا مثبتا . زاد مرتب الفتى ، ولكن نصيب أبويه من هذا المرتب لم يزد وانما ظل كما كان : يصل اليهما أحيانا كاملا ، وأحيانا منقوصا ، ويتخلف عنهما بين حين وحين .

ويقبل الفتى ذات يوم في اجازة من اجازات الموظفين ليرى أسرته ، فترى المدينة منه شابا وشيقا أنيقا لم تعرفه من قبل ، وترى زينة ورواء لا عهد لها بهما عند أمثال هذا الفتى من شبابها بين أبناء الزراع والتجار ، ويرتفع رأس القمص حين يرى اعجاب الناس بابنه واحتفاءهم به ، واحتشاد النسوة والصبية لرؤيته حين يمر بهذا الشارع أو ذاك ، وبهذه الحارة أو تلك ، ويمتلىء الفتى بنفسه تيها واعجابا حين يرى تهافت

الناس عليه وسعيهم اليه ، يحبه بعضهم من قريب ، ويحبه بعضهم من بعيد ، ويعجب به أولئك وهؤلاء ، ويرى فيه مع ذلك أولئك وهؤلاء شيئا من الكبرياء ، ينكره بعض الناس في قلوبهم ، وينكره بعض الناس بألسنتهم . ويشفق الأب والأم على ابنهما من حسد الحاسدين ، ويتمنى الأب والأم أن يقيم ابنهما فيطيل المقام ليستمتعا به ولينعما بحضوره ، ويتمنيان مع ذلك أن يعجل السفر ليأمن كيد الكائدين وحسد الحاسدين . ويعود الفتى بعد أيام الى عمله ، وقد رضى عن نفسه ورضى عنه أبواه ، ورضى عنه أكثر أهل المدينة وضاق به أقلهم . وكأنما ألم الفتى بهذه المدينة إلمامته القصيرة تلك ، ليودع أباه ويراه المرة الأخيرة ، فما يكاد الفتى يسافر وتمضى على سفره أيام حتى يحس الشيخ من الضعف ما يحس الشيوخ ، فلا يكاد يحفل بذلك ولا يلتفت اليه ، ولكن الضعف يزداد ويلح ، والشيخ يثقل ويضطر الى لزوم داره ، ثم الى لزوم فراشه ، ثم الى فراق هذه الدنيا . ويعود الفتى مرة أخرى الى المدينة حزينا كئيبا ، ولكن الحزن والكآبة لم يزيداه الا رشاقة وأناقة واستهواء لقلوب الناس ، واستجلابا لحبهم له وعطفهم عليه ، فقد ذهبا بكثير من فرحه ومرحه واعتداده بنفسه واستخفافه بغيره ، وردّاه الى شيء من الدعة والاتزان واعتدال المزاج .

ومهما يكن من شيء فقد ألقي في روع الفتى انه أصبح بعد موت أبيه رجلا يحتمل التبعات وينهض بأعمال الأسرة ، وقد واجه التبعات والأعباء مواجهة حسنة ، فشمل أمه وأخته بكثير من العطف والرعاية ، وجد واجتهد وسعى ووسط غيره في السعي حتى استطاع أن ينقل نفسه من مدينته تلك البعيدة التي كان يعمل فيها ، الى مدينته هذه التي تقيم فيها أسرته ، واذا هو موظف في مكتب البرق بالمدينة يقيم في أسرته ويرعاها ، ويقوم منها مقام أبيه .

ويمضى أمور الأسرة كما تستطيع ، أو على خير ما تستطيع فقد أقام الفتى في داره وعاش مع أهله ، ودبر أمره خيرا مما كان يدبره الشاب المترف ، فاستقامت له ولأهله حياة لم تكن تستقيم لهم من قبل ، وكم تمنت جنبة — لو كان ينفع التمني — أن يعود المقدس فيشارك في هذه الحياة ، وينعم بها ، ويسعد برؤية ابنه غاديا على العمل أو رائحا الى الدار ، في زيه ذاك الجميل ، وشكله ذاك الوسيم ، ومنظره الذي يملأ القلوب روعة ورضا .

وتتصل أسباب الفتى بزملائه الذين يعملون معه في مكتب البرق ، وبزملاء آخرين يعملون في المحطة ، وبجماعات أخرى من الموظفين يعملون في المحكمة أو في مكتب البريد ، واذا هو يرقى بأسرته حقا الى هذه الطبقة الممتازة التي طالما ود أبوه لو يرقى بها اليها ، واذا هو ممتاز بين هؤلاء الموظفين الممتازين حين يلتقون من آخر النهار أو من أول الليل في قهوة ذلك الرومي التي كانت تقوم على شاطئ القناة قريبا من المحطة ، والتي كان الموظفون ، ولا سيما الشباب منهم ، يسعون اليها حين يدنو الأصيل ، فيقيمون فيها فرحين لاعبين مداعبين حتى يتقدم الليل .

وفي ذات صباح يجلس الفتى الى فطوره وأمه الى جانبه تنظر اليه وتعجب به ، وأخته سعاد قائمة بين يديه تخدمه ، تذهب وتجيء مقدمة هذا اللون رافعة هذا الاناء ، واذا الفتى يحتال حتى يبعد أخته ، ويخلو الى أمه فيلقى اليها في همس سريع أو سرعة هامسة ، أن زميله فلانا يخطب اليه أخته ، وأنه سعيد بهذه الخطبة ، يرى فيها مزيدا من رقي وفضلا من رخاء ، فهذا الزميل فتى كريم من أسرة كريمة ، قد فقد أبويه ، فهو اذن سيد نفسه ، وهو يقبض في آخر الشهر مرتبا كالذي يقبضه هو ، وهو يريد أن يكون له أخا ، واذا قبلت

خطبته وتم زواجه فسيعيش في الدار ، وسيكون لامه ابنا ثانيا ، وسيجمع المرتبان ، وستغرق الأسرة في نعيم ورخاء لم تكن لترجوهما أو تفكر فيهما . وتسمع الأم هذا الحديث فيقع من قلبها موقعا غريبا فيه كثير من الاغراء ، ولكنه يثير كثيرا من الحزن والخوف والأسى ، فابنتها مخطوبة او كالمخطوبة لجارها الفتى ، قد ذهب زوجها الى الدار الآخرة وهو مقر لهذه الخطبة راض عنها مغتبط بها ، وفي نفس ابنتها شيء من هذا الفتى الجار ، ليس في ذلك شك . ثم تثوب الشيخة الى نفسها بعد أن شكت غير طويل ، وتقول لابنها في صوت هادىء رزين : وددت لو كان ذلك يا بنى ، ولكن اختك مخطوبة او كالمخطوبة ، قد احبها جارنا عبد السيد ، وكانها تحبه ، وقد تحدثنا في خطبتهما وقبلها ابوك . ولا يكاد الفتى يسمع حديث امه حتى تأخذه الكبرياء ، ويعاوده الاعتداد بالنفس ، ويقول لامه في صوت المغضب الذى كادت تخرجه الموجدة عن طوره : « كان هذا في تلك الأيام السود ، فأما الآن فما احب أن اخوض ولا أن تخوضي في هذا الحديث » . ثم يشعل سيجارته في انفة وينهض في كبرياء متثاقلة ، وينصرف عن الحجرة ، ثم ينصرف عن الدار وكأنه لم يخلف فيهما احدا .

وقد صرفت حنينة نفسها عن هذا المكروه ، فلم تتحدث فيه الى ابنتها ، وأزمعت أن تراجع فيه ابنها ، وراجعته مرة ومرة ، ولكنها لم تظفر منه بشيء ولم تلق منه الا ازورارا واعراضا ، حتى انذرها ذات يوم بأنها ان لم تذعن له فسينتقل من هذه المدينة كما انتقل اليها ، وسيستأنف حياته تلك الغريبة الشريدة وسيتركها تعيش مع ابنتها في ظل هذا الفتى الغافل الذى لا غناء فيه ، وسيرسل اليها ما يستطيع ان يرسل اليها من المال ليعينها على العيش كما كان يفعل في حياة ابيه .

ولم تتعود الامهات في مثل هذه البيئة مقاومة ابنائهن ،

وانما تعودن الاذعان لهم والاستجابة الى ما يريدون . والفتى يقوم مقام ابيه ، فهو سيد الأسرة وصاحب الأمر والنهي فيها ، لا ينبغى ان يلقى منها مقاومة ولا اعتراضا ، فما ايسر ما تذعن حنينة لابنها ، وما اسرع ما تحاول ان تحمل صفاء على الاذعان ، وصفاء ليست في حاجة الى ان تحمل على الاذعان ، فهى مذعنة بطبعها لما يريد اخوها ولما تحب امها . ومتى استطاعت الفتيات ان يخالفن عن امر الاخوة والامهات !

هى اذن مذعنة الارادة ، ولكنها ثائرة القلب ، وقد بذلت حنينة جهدا غير قليل لتغرى ابنتها بمثل ما اغراها به ابنها من الرخاء والنعيم ، وارتفاع المنزلة ، وامتياز الطبقة ، وبما سيتاح لها من زينة وترف لم تكن لتظفر بهما لو اقترنت الى هذا الفتى المتواضع الفقير الذى لا يكسب قوته الا بالجهد والمشقة ، وسعى امه لتعينه على تحصيل ما تحتاج الأسرة اليه وكانت صفاء تسمع لهذه الأحاديث ، فتذعن ارادتها وتثور قلبها ، وتحاول ان تظهر الرضا فلا تجد الى اظهاره سبيلا .

ثم يخرج نبأ هذه الخطبة من دار حنينة الى دار مرجانة ، ثم الى غيرها من الدور ، ويصبح حديث اهل الشوارع ، ثم حديث من يعرف الأسرة من الناس ، فأما مرجانة فتسمع ولا تقول شيئا ، وأما المعلم بوتان فيسمع ويبتسم ولا يزيد على ان يقول : واين يكون ابننا من هذا الفتى ، وابننا كاتب لا يكاد يكسب قوته ، وهذا الفتى موظف ممتاز ! واما الناس فاقلهم يغبط صفاء واكثرهم يحسدها ، واما عبد السيد فيثور ويثور وينذر مرة باقتراف الجريمة ، ومرة اخرى بقتل نفسه ، ثم يرد الى هدوء منكر من ورائه شر عظيم .

فهو يغدو ويروح بين اهله وعمله قد انطوى على نفسه ، وانطوت نفسه على ما فيها . فهو لا يتحدث الى احد في هذه الخطبة المعلنة ، وفي هذا الزواج المنتظر ، ولا يحب ان يتحدث

اليه أحد فيهما ، واذا تحدث الناس اليه في شيء من ذلك اعرض عن الحديث ولم يلق اليه بالا ، كأنه غريب من هذه البيئة التي يعيش فيها ، لا يعنيه شيء مما يفعل الناس حوله أو يقولون .

وقد كانت مرجانة تهيء نفسها لتفيض على ابنها شيئا من عطفها ، وفضلا من حنان تريد أن تعزيه عن محنته ، وتواسيه في هذه الملمة التي نزلت به فبغضت اليه الحياة وألقت بينه وبين الأمل حجابا صفيقا وأستارا كثافا ؛ ولكنها لم تر من ابنها حزنا ، ولم تسمع منه شكاة ؛ وحاولت أن تنفذ الى ذات نفسه فلم تبلغ مما حاولت شيئا ، وظنت آخر الأمر أنها أكبرت من هذا الأمر صغيرا ، وعظمت منه حقيرا ، وأسرفت في حسن الظن بابنها ، فقدرت أنه كان يحب ويسعد بالحب ، وأن هذه الخطبة قد ردته من الكآبة والحزن واليأس الى ما لا يطاق ، ولكنها تنظر فترى ابنها ساهيا لاهيا ، لا يحفل بأحد ، ولا يحفل بشيء ، ولا يظهر عليه ما يدل أنه حزين أو يائس أو كئيب ، فقد كان الفتى عابثا في حبه اذن ، وهو الآن غافل بعد أن تقطعت الأسباب بينه وبين هذا الحب ، ينتظر أن تتاح له فرصة أخرى لعبث آخر مع فتاة غير هذه الفتاة . وليس من شك في أن مرجانة لم تنعم بما لاحظت من سهو ابنها ولهوه وغفلته ، وانما آذاها ذلك في نفسها ، وأضاف الى حزنها القديم حزنا جديدا ، والى ما ألفت من خيبة الأمل في فتاها الذي لم يكن يحسن العمل كما كان يحسنه أبوه ، ويكسب من المال كما كان يكسب أبوه ، خيبة أمل جديدة في فتاها الذي لا يحسن أن يحب ، ولا يحسن أن يأسى حين تنقطع به أسباب الحب ويحال بينه وبين من يهوى ؛ وهي ترد عطفها وحنانها ورحمتها واشفاقها الى نفسها البائسة الكئيبة التي كانت تريد أن تجد شيئا من الروح في اظهار ما تكنه نفوس الأمهات من العطف والحنان والرحمة والاشفاق . ولست أدري

بأي الأمرين كانت مرجانة أشد تأذيا ؟ بخيبة أملها المجددة في ابنها الوحيد ، أم بما اضطرت اليه من كبت عواطفها ورد نفسها الى الاجداب بعد أن كادت تخصب ، والى الفقر بعد أن كادت تغنى ، والى الموت بعد أن همت بالحياة . وليس شيء أدفع لنفوس الأمهات الى اليأس القاتل من هذا الحرمان الذي ترد اليه ردا وتكره عليه اكراها ، فما تقسى الأم اذا لم تجد العطف على ابنها ، والرحمة له حين يألم أو يتعرض للألم ! وما تقسى الأم اذا لم تجد الرضا والغبطة والاعجاب حين يأتي ابنها بما يدعو الى الرضا والغبطة والاعجاب ؟ وهذه مرجانة قد حيل بينها وبين الرضا عن ابنها والاعجاب به منذ وقت طويل ، وهي ترى جارتها حسنة ترضى عن ابنها فتضيف كل الرضا وتعجب به كل الاعجاب ، وتراه يرضيها ويعجبها أن الناس من حولها يكبرون الفتى ويقدرونه ويثنون عليه ، ولا يدعونها باسمها كما كانوا يفعلون في بعض ما مضى من الوقت ، ولا يدعونها بأم لطيف كما كانوا يفعلون بعد أن ولدت ابنها ، وحين كان صبيا أو شابا يختلف الى المدارس ، وحين كان موظفا خاملا لا تراه العيون ولا تحقق النفوس ما يمتاز به من الرشاقة والأناقة وجمال الزي وروعة المنظر ، وانما يدعونها أم الأفندي . يلقون الهمزة ، ويلقون فتحها على اللام فيقولون : « أم الفندي » .

حيل بين مرجانة وبين الرضا عن ابنها والاعجاب به منذ تبينت أنه خامل خامد ، لا يغني غناء أبيه ، ويحال بينها الآن وبين ما بقي لها من أن تشمل ابنها بالعطف والرحمة والحنان حين يلم به الخطب أو يلح عليه الهم أو ينزل به المكروه ، فابنها لا يحس خطبا ولا هما ولا مكروها ، ولا يجد حاجة الى عطف أو رحمة أو حنان ، ولو قد شملته أمه بشيء من ذلك لما أحسه ولا ذاقه ولا التفت اليه . هي اذن شقية بخيبة الأمل ، شقية بكبت العاطفة ، وهي تحاول أن تتحدث الى زوجها الشيخ

في بعض ذلك ، فلا تسمع منه الا هذا الجواب يرده عليها في ابتسامة حزينة ساخرة : وأين يقع ابنا الخامل الخامد البائس اليائس ، من هذا الفتى الجميل الوسيم الذي تبتسم له الحياة !

وهمت مرجانة أن تتحدث ذات يوم الى ابنها في بعض ذلك ، فقال لها متضاحكا : « ما نحن وذاك ! ان المال اقوى قوة ، وأعظم بأسا ، واوسع سلطانا ، واشد اغراء من الحب ، وما ينبغي للفقراء أن يحبوا » . وهمت ان تمضي في حديثها فكفها من ذلك بافراقه في ضحك طويل ، وبانتقاله الى احاديث الحقل والعاملين فيه ، والى احاديث الدائرة وموظفيها ، حتى قال أبوه الشيخ : « دعي هذا الفتى ، فانه لم يخلق لفرح ولا لحزن ، كما لم يخلق لجد ولا لعمل » . وسمع الفتى مقالة أبيه ، فازداد اغراقا في الضحك ، ثم انصرف عن الدار كأنه مجنون . وكان من وراء هذا الجنون مع ذلك خاطر قد طوى عليه نفسه طيا ، وهو ان المال اقوى من الحب . ولكن الطريق بينه وبين الحب قريبة كل القرب ، ممهدة كل التمهيد ، فليس بينه وبين صفاء الا جدار واحد يفصل بينهما ، فاذا ارتقى الى سقف الدار ، فليس بينه وبين صفاء جدار ولا ستار ولا حائل رقيق أو صفيق ، فالأسوار بينه وبين الخطبة ، والاسوار بينه وبين الزواج ، كثيفة منيعة لا سبيل الى اقتحامها ولا الى النفوذ منها ، ومتى استطاع الفقر المعدم ان ينفذ من اسوار المال والثراء ! ولكن الاسوار بينه وبين الحب لا وجود لها ، وانما هي حيلة واسعة اولا ، وجراءة جريئة ثانيا ، وحمل النفس على ما تكره بعد ذلك . وقد جعل هذا الخاطر يتردد في ضمير الفتى يقظان ، ويتردد في احلامه نائما ، والفتى يملك امره ويضبط نفسه ويمسك لسانه ، فلا يظهر شيئا ولا يقول شيئا ولا يخلي بين الناس وبين ما أخفى في ضميره من هذا السر المكتوم . ولم تكن حال صفاء خيرا من حاله ، ولكنها

كانت أدنى منه الى الصراحة ، وأسرع منه الى الإذعان . لم تكن نفسها عسيرة ولا معقدة ، ولم يكن لها حظ من مهارة أو مكر ، وانما كانت ساذجة غافلة لا تحسن حقدا ولا كيدا ولا استخفاء وهي من أجل ذلك لم تطو على نفسها ولم تستخف بما في ضميرها ، وانما اذعنت خاشعة الارادة ثائرة القلب كما قلت ، فلما اشتد عليها الالحاح وكثر حولها الاغراء ، وجعلت الوان الطرف وفنون الهدايا تسبق الى الدار ، رضيت بنصف نفسها وسخطت بنصفها الآخر ، فكانت تمنح الخطبة والزواج ابتساما ظاهرا ورضا يكاد يشرق له وجهها احيانا ، وكانت تمنح الحب حزنا دخيلا وأملا دفينا ، ودموعا لعلها ان تنهل حين تخلو الى نفسها في ساعة من ساعات النهار أو في ساعة من ساعات الليل ، وهي بعد لم تر خطيبها ولم تسمع له ، وانما رأت آثاره ، وسمعت ما كان يروى عنه من الاحاديث ، فكان خطيبها ظلا يرسل الطرف والهدايا والزينة ، ويتحدث الناس عنه بما يشاءون ، وكان حبها شخصا رأته من قرب ، واستمعت له وتحدثت اليه ، وتمثلته في نفسها ، واستحضرته في ضميرها وقد جعلت منذ حين لا تراه الا مخالسة ، ولكنها تراه على كل حال ، وهي تستطيع أن شاءت أن تبتغي الوسائل للقائه ، ولو فعلت لأتيح لها هذا اللقاء ، ولو فعلت لاستأنفت التحدث اليه والاستماع له ، ولمتعته من حديثها ونظراتها بما كانت تمتعه من قبل ، ولاستمتعت من حديثه ونظراته بما كانت تستمتع به من قبل . خواطر تتردد في نفس الفتاة ، وهي مشبهة شبها قويا أو ضعيفا الخواطر تتردد في نفس الفتى ، وربما خطر لصفاء أن لو كان جارها ميسر الحال موفور الكسب لما استطاع أحد أن يصدها عنه أو يردها عن حبه ، ولكنه خامل خامد لا يكسب ما يقيم أوده وأود أبويه ، فما احتماع الفقر الى الفقر ، وما اقتران البؤس الى البؤس ، وما التماس الاعدام بالاعدام !

أحق اذن أن الحب لم يخلق للفقراء ، وأن الفقراء لم يخلقوا ليحبوا ، وانما خلقوا ليكدوا ويجدوا ويعملوا ويكسبوا القوت ، فان بلغوا من ذلك ما يريدون فهو خير لهم ، وان لم يبلغوه فان فى الشقاء لهم سعة ، وفى الموت لهم راحة وروحا ؟

وكذلك كانت نفس الفتاة تضطرب بمثل ما كانت تضطرب به نفس الفتى من الألم والحزن واليأس ، وكان قلب الفتاة يجد ما كان قلب الفتى يجد من اللوعة والحسرة والأسى ، وكان أحب شىء اليها أن تفضى الى الفتى بذات نفسها ، وأحب شىء الى الفتى أن يفضى اليها بذات نفسه ، ولم يكن الى ذلك سبيل بمشهد من الناس أو على غيب منهم ، لقد حيل بينهما وبين اللقاء ، وليس يفصل بينهما مع ذلك الا حائط واحد رقيق ، ولو قد صعد كلاهما الى سقف داره مخالسة لأتيح لهما اللقاء والحديث .

والأيام تنقضى على ذلك وتتبعها الليالى ، فازداد المعلم يونان اتصالا بمصطبته ولزوما لها ، وازدادت مرجانة تطوفا فى الأرض تقصدها تلك التى تغطيها الأعشاب ، ومضى الفتى فى حياته الكسلة الهامدة ويقظته الغافلة الذاهلة ؛ وأقبل النشاط وانبعثت الحركة فى دار صفاء ، وأحس الناس أن يوم الزواج يدنو قليلا قليلا . وقد أطل هذا اليوم واستقبلته صفاء باسمة الثغر ، عابسة النفس ، ظاهرة الرضا ، مضمرة السخط ، وأقبل القسيس مع المساء على دار فرحة مبتهجة قد امتلأت بقوم فرحين مبتهجين . وقد أحيا القسيس مراسمهم فرتلوا وكللوا وقرعوا الأجراس والنواقيس ، وعقدوا تلك العقدة التى لا تفصمها الا الموت . وكان المعلم يونان مستلقيا على مصطبته فى الجانب الأيمن من داره ، وكانت مرجانة قد جلست منه غير بعيدة واجمة ساهمة ، تجرى على وجهها دموع صامتة ، يقول المعلم : « أين ابنك يا مرجانة ؟ » فتقول مرجانة بصوت مبلل : « لعلك كنت تريد أن يشارك فى هذا الفرح ! » .

فيعود الشيخ الى صمته ، وتنقضى الشيخة فى وجومها الباكى أو بكائها الواجم . ولم تشعل فى دار مرجانة ذلك اليوم نار ، ولم تر دار مرجانة فى تلك الليلة نورا ، وانما كانت النار ذاكية والنور متألقا فى دار حسيبة . ويتقدم الليل حتى يبلغ نصفه ، ثم يتقدم حتى يوشك أن يبلغ ثلثيه ، والمحتفلون فى فرحهم ومرحهم ، قد أخذوا يتشوقون ويتشوفون الى مثل ما تعودوا أن يشهدوا فى تلك الليالى ، ولكنهم ينصرفون لم يروا شيئا ، ولم يسمعوا شيئا ، وقد شملهم فتور الريب بقيض . وترى أعقاب الليل المنهزم فتى يتسلل من دار حسيبة مستخفيا فيما بقى من ظلام ، ويسفر الصبح شاحبا كئيبا ، وتشرق الشمس بنور دبها ، ولكنها ترسل على ذلك الشعاع أشعة فاترة حائرة متهالكة ، لا تكاد تخرجه من سكونه الى الحركة ، ولا تكاد تخرج أهله من صمتهم الى الكلام ، وهؤلاء نفر من الناس قد أقبلوا يتبادرون شاطىء القناة ، حتى اذا بلغوا المنحدر هبطوا الى دار مرجانة فأدخلوا فيها جثة قد احتز القطار رأسها احتزازا ، ويرتفع صوت مرجانة مولولا ، فلا يكاد يجاوز دارها حتى يجيبه من دار حسيبة صوت آخر مولول قد ارتفع بالاعوال . ويعلم الناس قبل أن ينتصف النهار أن الفتى قد نام ينتظر الموت حتى جاءه به قطار الصعيد ، وأن صفاء قد أصبحت مزوجة كالمطلقة ، ففصمت تلك العقدة التى عقدها القسيس والتى لا يفصمها الا الموت .

تقول حسيبة فى نحيبها : « يا ليتنا لم نعرف المال ! » وتقول مرجانة فى نحيبها : « يا ليتنا لم نعرف الحب » . ويقول المعلم يونان فى صوته الهادىء المتقطع : « قد عرفنا الموت الذى هو أقوى قوة من المال والحب جميعا » .

٧

خطر

لست أبغض شيئاً كما أبغض الغناء الفردوسي في الوعظ والارشاد وتنبيه الغافلين وايقاظ النائمين وتحذير الذين لا يغني فيهم التحذير ولا النذير ؛ وأنا مع ذلك مضطر الى هذا أشد الاضطرار ، أراه واجبا تفرضه الوطنية الصادقة ، وتفرضه الكرامة الانسانية ، وتفرضه الحرص على ألا تتعرض مصر للأخطار العنيفة قبل أبانها ، وعلى أن يسلك هذا الوطن البائس طريقه الى التطور في أناة ورفق وهدوء ، لا تعصف به العواصف ولا يجري عليه ما جرى على بعض الأمم من هذه الثورات التي لا تبقي على شيء .

وقد يذعر القارىء حين يقرأ هذا الكلام ، وكم أتمنى أن يكون ذعره صادقا يبلغ القلب ، ويصل الى أعماق الضمير ، ويدفع الى العمل الذي يعصم مصر من هذه الأهوال التي تنتظرها في طريقها الى التطور والرقي .

موظف من موظفي الدولة ، ليس بالعامل الذي يحسب له أجره مياومة ، وانما هو من الموظفين الدائمين — أو المثبتين — كما يقول الحكوميون . هذا الموظف في الدرجة السابعة ، يبلغ مرتبه اثني عشر جنيها أو أقل من ذلك قليلا ، له زوجة وخمسة من الولد ، وقضت عليه ظروف الحياة أن يعول بني أخته وهم ستة ، وأن يعول عمة له تقطعت بها أسباب الرزق ، فهم اذن أربعة عشر شخصا ، يعيشون أو يراد منهم أن يعيشوا

على هذا المرتب الضئيل . والعيش طعام وشراب ولباس ، والتجاء الى دار يظلهم سقفها ، وتحميهم جدرانها من أن تتخطفهم الشرطة ، كما تأخذ المشردين . وطبيعي الا ينهض هذا المرتب الضئيل بحاجة هذه الأسرة الضخمة ، فيكون الاقتراض ، ثم يكون العجز عن أداء الدين ، ثم يكون امتناع القادرين عن الاقراض ما داموا لا يستردون ما يقرضون ، ثم يكون الحرمان ، لا أقول من طيبات الحياة ، فليس لمثل هذه الأسرة أمل في طيبات الحياة ، وانما أقول مما يقيم الأود ويرد ألم الجوع . ثم يكون الحرمان ، لا أقول من الثياب التي تقي حر الصيف وبرد الشتاء ، فليس لهذه الأسرة في هذه الثياب أمل ، وانما أقول من الثياب التي تستر ما يجب أن يستر من الأجسام . ثم يكون الحرمان ، لا أقول من الفرش الوثيرة ، فليس لهذه الأسرة في الفرش الوثيرة أمل ، وانما أقول من الحصير الذي يحول بين أجسامها وبين الأرض ، ومن الغطاء الذي يخيل اليها أنها تحاول أن تتقي به البرد . ثم يكون الضيق بالحياة ، ثم يكون الالتجاء الى الأغنياء بطلب المعونة ، ثم يكون اعراض الأغنياء عن هؤلاء اللاجئين البائسين ، اما لأن قلوب الأغنياء قاسية ، واما لأن هؤلاء اللاجئين ليسوا وحدهم طلاب العون وانما لهم شركاء في الالتجاء والتماس البر ، واما لأن الأغنياء يرون أن من الحق عليهم أن يحسنوا ولكنهم يرون أن من الحق أن ينظم الاحسان حتى لا ينتشر الأمر ، وحتى لا يلجأ اليهم البائس ومتكلف البؤس ، وحتى لا يتخذ السؤال صناعة وحرفة وحتى لا يتخذ البر وسيلة الى طمع الناس فيما ليس في أيديهم من يسر الموسرين ؛ واما لهذه العلل كلها مجتمعة ولعلل أخرى كثيرة يمكن أن تضاف اليها وليس في احصائها نفع لأحد .

ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو أن هذا الموظف من موظفي الدولة عاجز عن أن يجد في مرتبه الضئيل ما يرضي

أيسر ما تحتاج اليه اسرته لتعيش ، فهو يستدين من جهة حين لا يجد الى الاستدانة سبيلا ، وهو يلتمس الاحسان من كل طريق فلا يظفر بما يلتمس من الاحسان ، فليس امامه الا ان يقترف الاثم ليعيش ويتيح لاسرته ان تعيش ، وقد يمنعه خلقه ودينه من اقتراف الاثم ، وقد تكون الحاجة الى القضاء والكساء أقوى من خلقه ودينه ، فيقترف الاثم ، ولكن القانون له بالمرصاد ، فهو ان فعل تعرض للعقوبة ، وتعرضت اسرته لبؤس تضاعفه الظروف اضعافا ، واذن فليصبر ، ولكن الصبر لا يطعم الجائع ، ولا يكسو العارى ، ولا يسكت الصبى الذى يصيح ملتمسا طعامه حين يمضه الجوع ، ولا يداوى المريض ، ولا يغنى عن الذين انتهوا الى الدرك الاسفل من الحرمان شيئا .

والشيء الذى ليس فيه شك ، ان هذا الموظف ليس وحيدا في بؤسه هذا المنكر ، وفى محنته هذا التعبل ، وانما له نظراء لا يحصون بالعشرات ولا بالمئات ، وانما يحصون بالالوف واخشى ان يحصوا بعشرات الالوف ، وليس من الممكن ان تحل مشكلات هؤلاء الناس بالاستدانة والعجز عن اداء الدين او الالتواء بالدين ، وليس من الممكن ان تحل مشكلات هؤلاء الناس بالصدقة والاحسان ، فان الصدقة والاحسان قد يعينان على تفريج ازمة عارضة ، وعلى اطعام العيال يوما او ايلما ، وعلى كسوة العيال فى فصل من الفصول ، ولكنهما لن يستطيعا ان يكفلا لهؤلاء الناس حياة يأمنون فيها من البؤس والجوع .

وانا لم اذكر الى الآن حق هؤلاء الصبية فى ان يتعلموا ، وفى ان يستمتعوا بصحة لا تجعلهم عرضة للادواء المهلكة والامراض المعدية ، ولا تجعلهم مصدر خطر على من يتصل بهم من الناس .

هذه مشكلة لو كانت طارئة للفتت ان الحديث عنها قد يلفت اليها ويدعو الى التفكير فيها والاجتهاد فى حلها ، ولكنها لم تطرأ اليوم ، ولم تطرأ امس ، وانما عهدها بنا بعيد ، واهمالنا لها متصل ؛ وهى من اجل ذلك تنتج نتائجها المنكرة المخزية ، فانتشار الوباء فى غير مشقة ، وانتشار الفساد الخلقى ، وانتشار الرشوة وانتشار السرقة ، وتقطيع الصلات بين الناس ، وانتشار الظلمة فى الضمائر والقلوب ، وانتشار اليأس حتى من روح الله ، وانتشار الذلة والمسكنة والهوان ، وانتشار الاذعان للظلم والاستسلام للعسف والانقياد للاستبداد بالحرية والكرامة والازدراء لكل ما يجعل الانسان انسانا ، فضلا عن الازدراء لكل ما يجعل الانسان انسانا متحضرا ممتازا — كل هذه الآفات والمخازى ليس لها مصدر الا هذا الشقاء .

ولاعد الى هذا الموظف من موظفى الدولة ، انه كغيره من الموظفين : يغدو الى مكتبه مع الصباح ، ويروح الى داره مع المساء ، قد اتخذ ثيابا تلائم عمله ، ولو بليت ثيابه فلم يجد ما يشترى به ثيابا أخرى لعوقب على ذلك ، فالدولة حريصة على ان يكون موظفوها كراما فى مظاهرهم على اقل تقدير . هو اذن يغدو ويروح فى ثيابه تلك اللائقة ، وعلى رأسه طربوشه ، وفى رجليه حذاؤه الذى لا ينبغى ان يبلى وهو يستقبل اصحاب الحاجات من الشعب ، يبسم لهم أو يعبس فى وجوههم ، يخدمهم ناصحا او يخدمهم متكرها ، وهو يتحدث الى زملائه فيبادلهم الدعابة حينا ويبادلهم الشكوى احيانا ، وهو على كل حال حى متحرك ، يحيا حياة ظاهرة ولكن قلبه ميت ، قد اماته البؤس والشقاء والهم ، واكثر زملائه يشبهونه ، فانما الدولة يخدمها موظفون تحيا اجسامهم وتموت نفوسهم ، والنظر بعد ذلك من هذه الدولة ان تسلك بالشعب طريقه الى العزة والكرامة والاستقلال الناقص او التام ،

والمهم هو اننا عشنا حتى رأينا موظفى الدولة يطلبون الصدقة ويلتمسون الاحسان : يطلبون ذلك بألسنتهم ويطلبون ذلك بأقلامهم . جاهدوا ما وسعهم الجهاد حتى أرغمتهم الحاجة على أن يتخففوا من هذه الكرامة التى منحها الله للانسان ، والتى تمنع الانسان من ان يسأل ويلتمس الاحسان !

موظفى الدولة اذن يطلبون الصدقة ويلتمسون الاحسان ، واغرب ما فى الأمر ان عامة الشعب يحسدون الموظفين على مرتباتهم هذه المقررة المنظمة التى تصرف لهم فى أول الشهر ، لا تتخلف عنهم ولا تبطىء عليهم ، واذا كانت هذه حال المحسودين فكيف تكون حال الحاسدين ! أظن انك قد رأيت الخطر الذى يسعى الينا مسرعا ، او الذى نسعى اليه مسرعين ، وأظنك توافقنى على اننا بين اثنتين : اما ان نترك الأمور تجرى على سجيتها فيكون ما لا بد أن يكون ، ويجرى علينا ما جرى على الأمم من قبلنا ، واما أن نستقبل من امرنا ما استدبرنا ، وان نحاول الاصلاح لنعصم موظفى الدولة من طلب الصدقة والتماس الاحسان ، فنعصم الشعب كله من طلب الصدقة والتماس الاحسان ، وليس الى ذلك الا سبيل واحدة ، هى أن نعيد النظر فى نظامنا الاجتماعى كله ، فيما تجبى الدولة من الضرائب ، وفيما تمنح الدولة من المرتبات .

الضرائب قليلة جدا ، أقل مما ينبغى ، والمرتبات قليلة جدا ، أقل مما ينبغى ، والعدل يقتضى أن تضاعف الضرائب ، وأن تضاعف المرتبات ، وأن تكف الدولة عن الاسراف فى الأموال العامة ، وأن يكف الأغنياء عن الاسراف فى أموالهم الخاصة . وليس الى الاصلاح الاجتماعى من سبيل الا اذا وجدت الأداة السياسية الصالحة التى تستطيع أن تنهض بعبئه وتقله من مشكلاته ، فهل ترى أن مصر تملك فى هذه الأيام اداة سياسية صالحة تمكنها من محاولة هذا الاصلاح ؟ هذا سؤال لست فى حاجة الى أن أجيب عليه !

٨
تضامن

لم يكن عمر بن الخطاب رحمه الله ، يقدر حين صفر بالمسلمين من الحج سنة ثمانى عشرة للهجرة ، أنه يستقبل بالمسلمين من أهل بلاد العرب ، ومن أهل الحجاز ونجد وتهامة خاصة ، عاما أسود قاتما يمتحن المسلمون به فى أنفسهم وأموالهم وأخلاقهم ، وفيما أتيح لهم من الصبر على الشدائد والثبات للمكروه والنفوذ من الخطوب ، وفيما أتيح لهم كذلك من هذا الشعور الكريم الممتاز الذى يجعل الانسان انسانا ويرقى به الى المنزلة العليا من منازل الكرامة ، وهو شعور التعاطف والتآلف ، والتضامن الاجتماعى الذى يلقى فى روع كل فرد مهما تكن منزلته ، أنه عضو من جماعة يسعد بسعادتها ، ويشقى بشقائها ، ويأخذ بحظه مما يصيبها من النعماء والبأساء ، وما ينوبها من السراء والضراء .

لم يكن عمر رحمه الله يقدر أن الغيب قد أضمر له وللمسلمين من أهل بلاد العرب هذه المحنة القاسية ، يمحص بها قلوبهم ، ويصفى بها نفوسهم ، ويعلمهم بها ان الحياة ليست نعيما متصلا ، ولا رضاء مقيما ، ولا خصبا يتجدد كلما تجددت الفصول ، وانما هى مزاج من النعيم والبؤس ، ومن اللذة والألم ، ومن السعادة والشقاء ، وأن سبيل المؤمن الذى مس الايمان قلبه حقا ، هو الا يطغى اذا استغنى ، ولا يبطر اذا نعم ، ولا ييأس اذا امتحن بالبؤس والشقاء ، والا يؤثر نفسه بالخير ان أتيح له الخير من دون الناس ، والا يترك نظراءه نهبا

النوازل حين تنزل ، والخطوب حين تلم ، وانما يعطى الناس مما عنده حتى يشاركوه في نعمائه ، ويأخذ من الناس بعض ما عندهم حتى يشاركهم في بأسائهم ؛ فالله لم ينشر ضوء الشمس ليستمتع به فريق من الناس دون فريق ، والله لم يرسل النسيم لتتنفسه طائفة من الناس دون طائفة ، والله لم يجر الأنهار ولم يفجر الينابيع لتشرب منها جماعات من الناس وتظمأ اليها جماعات أخرى ، والله كذلك لم يخرج النبات من الأرض ليشبع منه قوم ويجوع آخرون .

وانما أسبغ الله نعمته ليستمتع بها الناس جميعا ، تتفاوت حظوظهم من هذا الاستمتاع ، ولكن لا ينبغي أن يفرض الحرمان على أحد منهم ، مهما يكن شخصه ، ومهما تكن طبقته ، ومهما تكن منزلته بين مواطنيه .

لم يكن عمر رحمه الله يقدر حين صدر من الموسم في ذلك العام أن الله سيرسل الى المسلمين عاما جديدا يمتحنهم فيه بالجوع والظما والعرى امتحانا لم يعرفوا مثله منذ عهد بعيد أشد البعد ، وكيف كان عمر يستطيع أن يقدر ذلك وأمور الدولة الناشئة تجري على خير ما كان المسلمون يحبون من العدل والسعة وبعد الصيت ، وانتشار الفتح وكثرة الفيء وغزارة الرخاء ! ولكن العام الجديد يقبل ، واذا السماء تبخل بمائها حتى تحترق الأرض ظمأ الى هذا الماء ، وحتى تسود كأنها الرماد ، وحتى يضطر المسلمون الى أن يسموا هذا العام عام الرمادة ، بخلت السماء بالماء ، وجادت الشمس بالحر ، وعجزت الأرض عن أن تخرج للناس ما يأكلون وما يطعمون به ما كانوا يسومون من الثاغية والراغية . وينظر عمر بعد أن استقر في المدينة ، فاذا الأزمة تسعى متمهلة متأنية ، ولكنها مستوثقة من نفسها ملحة في سعيها ، واذا أهل البادية قد أجدبوا واشتد عليهم الجدب فلم يفكروا

الا في أن يرجعوا الى خليفتهم ، يلتمسون عنده ما يطعمهم من جوع ، ويسقيهم من ظمأ ، ويكسوهم من عرى ، وما له لا يفعل ذلك وهو قد أخذ أبناءهم وآباءهم واخوانهم وكاسبيهم وعائليهم فرمى بهم تلك الثغور ، ودفع بهم الى حروب يعرفون أولها ولا يعرفون آخرها ! وما لهم لا يهرعون اليه وهم كانوا يشعرون بحبه لهم ، وعطفه عليهم ، وبره بهم ، يسعى الى أقصاهم كما يسعى الى أدناهم ، لا يقصر عن السعي اليهم ساعة من ليل أو ساعة من نهار ، ثم ينظر عمر فاذا جزيرة العرب كلها ترسل اليه من بقي فيها من الشيوخ والنساء والأطفال والعاجزين الذين لا يقدرون على شيء ، والقادرين الذين لا يجدون شيئا يقدرون عليه .. هنالك ينهض عمر للقاء هذه الأزمة العنيفة الجامحة نهوض الرجل الذي يعرف الحق كما لم يعرفه أحد بعده ، ويحمل العبء كما لم يحمله أحد بعده ، ويواجه الخطب مصمما على أن يفل منه أو يموت من دونه مهما تكن الظروف ، حتى أصبح عام الرمادة ذلك كنزا من كنوز المسلمين لا ينفد ولا يدركه الفناء : يجد المسلمون فيه من العبرة والموعظة الحسنة والقدوة الصالحة ما لا يمتنع عليه قلب له حظ من رقة ولين ، الا أن يكون من تلك القلوب التي وصفها الله عز وجل ، بأنها قست فهي كالحجارة أو أشد قسوة . وقد بدأ عمر رحمه الله بنفسه في مقاومة هذا الخطب ، فأبى الا أن يكون رجلا من المسلمين : يشقى كما يشقون ، ويجوع كما يجوعون ، ويظمأ كما يظمأون ، ويشتد على نفسه وعلى أهله بمقدار ما تشتد الأزمة على أشد الناس فقرا وبؤسا ، يفعل ذلك لأنه مؤمن قبل كل شيء بأن من الحق عليه لنفسه ولله وللناس أن يفعل ذلك ، ثم يفعله لأنه مؤمن بأن من الحق عليه أن يعلم الناس كيف يكون التضامن والتعاون والتعاطف ، حين تنزل المحن وتلم الخطوب ، فيأبى الا أن يعيش كما يعيش أفقر الناس !

رأى المسلمين لا يجدون السمن الا في مشقة وجهد ، فحرم على نفسه السمن حتى تجده عامة الناس ، وفرض على نفسه الزيت والخبز الجاف ، فلما ثقل عليه الزيت ظن أنه ان طبخ له فقد يكون أخف على معدته احتمالا ، فأمر أن يطبخ له بالزيت ، وأكله مطبوخا فكان أوجع له وأعسر هضما ، حتى تغير لونه واسود وجهه ، وكان شديد البياض ، ثم جعل يطعم الناس على الموائد العامة ويجلس معهم الى هذه الموائد يأكل مما يأكلون منه . ثم أمر المنادين أن ينادوا في الناس : من شاء ان يقبل على هذه الموائد ليأكل منها فليفعل ، ومن شاء ان يقبل على هذا الطعام فيأخذ منه حاجته وحاجة أهله ليأكل معهم فليفعل ! وكان يشرف بنفسه على اعداد الطعام ، وربما علم الطباخين كيف يطبخون . ولكن الأزمة تشتد وتشتد ، وأهل البادية يهرعون الى المدينة ، وكثير منهم لا يستطيعون أن ينتقلوا من أماكنهم ، قد هلك الزرع ، وجف الضرع ، ونفقت الماشية ، وأصبح من الحق على الخليفة أن يدرك هؤلاء الناس في مواطنهم ، ويحمل اليهم أرزاقهم ما داموا عاجزين عن السعي الى هذه الأرزاق ، هنالك يكتب عمر الى عماله في الأقاليم يأمرهم بأن يرسلوا اليه الأمداد . واقرأ هذا الكتاب القصير الرائع الذي كتبه عمر الى عامله على مصر عمرو بن العاص رحمه الله ، وانظر الى ما في هذا الكتاب القصير الرائع من عنف عنيف ملؤه الرحمة الرحيمة ، والرفق الذي ليس بعده رفق : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أمير المؤمنين الى العاصي ابن العاصي . سلام عليك . أما بعد أفتراني هالكا ومن قبلي وتعيش أنت ومن قبلك ؟ فيا غوثاه .. يا غوثاه .. يا غوثاه ! »

فلم يكد عمرو بن العاص رحمه الله يقرأ هذا الكتاب الذي يزجره فيه أمير المؤمنين أشد الزجر ، حتى كتب اليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص . سلام عليك ، فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو . أما بعد أتاك الغوث فلبث فلبث ، لأبعثن اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي » .

ثم نهض عمرو في ارسال هذا الغوث برا وبحرا ، وكتب عمر الى عماله الآخرين في الشام والعراق ، فكلهم صنع صنيع عامل مصر ، ثم أرسل عمر رسله الى حدود بلاد العرب مما يلي الشام والعراق ومصر ، وأمرهم أن يتلقوا هذه المؤونات ، فيميلوا بها الى أهل البادية في أماكنهم وأحيائهم ليطعموهم ويكسوهم ، ويسقوهم ، وعزم على رسله هؤلاء الا يشبعوا ولا يلبثوا ولا يفرغوا ما في أيديهم من الطعام دون أن يثبتوا أنه صائر الى بطون الجائعين ، لا الى خزائن المختزنين ، وأشد من هذا روعة وأعظم من هذا اثارة للعبرة ، أن عمر رحمه الله كان يقول : « نطعم ما وجدنا أن نطعم ، فان أعوزنا جعلنا مع أهل كل بيت ممن يجد ، عدتهم ممن لا يجد ، الى أن يأتي الله بالحيا » .

ومعنى ذلك أنه رحمه الله قد فتح بيت المال على مصراعيه ، وأزمع أن يرزق الناس منه ، حتى اذا لم يجد فيه شيئا كلف كل أسرة غنية أن تطعم مثل عددها من الفقراء ويأخذهم بذلك بسلطان القانون والدين ، حتى يأتي الله بالفرج .

وما قصصت عليك هذا كله لأرفه عليك بروائع التاريخ ، أو لأطرفك بهذه النوادر البارعة من سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فلسنا في وقت ترفيه ولا اطراف ولا ترويح ، وانما نحن نحيا في أيام سود ، ليست أقل نكرا . ولعلها أن تكون أشد نكرا ، من عام الرمادة ذاك .

فقد كان المسلمون في أيام عمر ، وفي ذلك العام ، يجدون الجوع والظمأ والعري ، فأما المصريون في هذا العام فانهم يجدون الموت ويجدون المرض ، ويجدون بعد الموت والمرض

ما كان يجد العرب فى عام الرمادة من الجوع والظمأ والعرى ، ومن حق المصريين الذين صب عليهم الوباء أن يدفع عنهم هذا الوباء ، وأن ترد عنهم آلاوه ، فلا يكون منهم من يشكو الجوع والظمأ والعرى ، وهذا الحق واجب على الدولة ما وجدت فى خزائنها من المال ما يمكنها من ذلك ، لا ينبغى أن تفكر فى شىء حتى تفرغ من هذه المحنة ، فإن لم تسعفها خزائنها فمن الحق عليها أن تسلك الطريق التى أراد عمر أن يسلكها ، وأن تفرض على القادرين رعاية العاجزين حتى يأتى الله بالفرج .

يجب أن تعلم الدولة ، ويجب أن يعلم الموسرون ، أن التصدق بالمال خير فى أوقات الرخاء والدعة واللين ، فإذا اشتدت الشدة وأزمت الأزمة وألم الوباء ، فالتصدق واجب يفرضه العدل ، فإن لم ينهض به الأفراد من تلقاء أنفسهم ، وجب على الدولة أن تأخذهم به أخذا . يجب على الدولة أن تعلم أن الله قد أمر أئمة المسلمين فى أوقات الرخاء والدعة أن يأخذوا من الأغنياء ويردوا على الفقراء حتى لا يبقى بين الناس جائع أو محروم ، فإذا جد الجد وألمت الكارثة ، فحرام على الموسرين أن يطعموا وأن يشربوا وأن يكتسوا حتى يطعم الجائعون ويشرب الظمئون ويكتسى العارون من المصريين .

وعلى الدولة أن تقوم على هذا كله بسلطان القانون ، فإن لم تفعل فهى آثمة أشنع الإثم فى ذات الله ، وفى ذات الوطن ، وفى ذات المواطنين !

هذه دروس ألقاها عمر بن الخطاب على الحاكمين والمحكومين فى التضامن الاجتماعى الذى لا يقوم على الاشتراكية ولا على الشيوعية ، وإنما يقوم على قول الله عز وجل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

فهل تطمع فى أن تسمع الدولة ، وفى أن يسمع الموسرون ؟ وهل تطمع فى أن تذكر الدولة ويذكر الموسرون ! وهل تطمع فى أن تعفى وتعفى الكرامة الإنسانية من طلب الصدقات فى الصحف إلى قوم يؤثرون الأموال على الوطن وعلى المواطنين ؟

إن من الحق على الدولة أن تعلم البخلاء كيف يكون الكرم والجود بسلطان القانون ، إذ لم يصدر عن يقظة الضمائر وحياة النفوس ..

٩

ثقل الغنى

كان عبد الرحمن بن عوف رحمه الله كثير المال عريض الثراء في جاهليته ، وقد أسرع الى الاسلام حين ظهرت الدعوة اليه فيمن أسرع اليه من السابقين الاولين ، لم يبطره الغنى ولم يصرف الثراء قلبه عن الخير ، ولم يخف كما خاف الأغنياء المترفون من قريش ما كان الاسلام يدعو اليه من التسوية بين الأغنياء والفقراء وبين الأقوياء والضعفاء وبين الأحرار والعبيد ، وانما شرح الله صدره للاسلام ، فأقبل عليه مشغوفا به مضحيا في سبيله بما جمع من مال وما ضم من ثروة وما اكتسب من سؤدد ، مستعدا لمشاركة أصحابه في التعرض للأذى واحتمال المكروه ، ولم يتردد كما لم يتردد غيره من أصحابه حين اشتدت المحنة وثقلت الفتنة وعظم البلاء في أن يفر بدينه الى حيث يأمن على رأيه وعقيدته وعبادته لربه ، تاركا وراءه ماله الكثير وثراءه العريض ومكانه الرفيع ، وقوما من أهله وذوى قرابته كان يحبهم أشد الحب ويعطف عليهم أرق العطف ويمنحهم صفو ما كان يفيض به قلبه من الرفق والبر والحنان ، فهاجر الى أرض الحبشة الهجرتين جميعا ، ثم هاجر الى المدينة حين اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم للاسلام دارا ، فانتهى اليها وهو لا يملك الا قلبه الذكي وضميره النقي وأنفه الحمى وايمانه الذى ملأ نفسه ثقة ويقينا ، وقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين رجل من أغنياء الأنصار هو سعد بن الربيع الخزرجي رحمه الله ، فقال له

سعد : انظر الى مالى وخذ نصفه ، ولى زوجتان أطلق لك أيتهما أعجب اليك فتتخذها لنفسك زوجا ! قال عبد الرحمن : بارك الله لك ، ولكن اذا أصبحت فدلوني على سوقكم . فلما أصبح ذهب الى السوق فأنفق فيها وجه النهار ، ثم عاد وقد باع واشترى واكتسب ما يقيم به الأود ثم أقبل بعد حين على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وقد لبس الجديد واتخذ من الزينة ما كان يباح للمسلمين في ذلك الوقت . فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك انباه بأنه قد اتخذ لنفسه زوجا من نساء المدينة ، وبأنه قد أمهر زوجه وزن نواة من ذهب ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم ان يولم لأصحابه ، ففعل .

ولم تمض أعوام حتى كان عبد الرحمن بن عوف من أغنياء المدينة قد اكتسب ثروة مكان ثروة ، وكنز مالا مكان مال ، واستطاع أن يتزوج فيمهر امرأته ثلاثين ألفا ، وكان يقول : لقد رأيتني وما أرفع حجرا الا ظننت أني واجد تحته ذهبا أو فضة !

كان عبد الرحمن اذن من كبار الأغنياء قبل أن تفتح مكة ، فلما ثم فتح مكة ضم الى ثروته الجديدة ثراءه التليد ، ثم استثمر هذا كله كأحسن ما يستثمر المال ، وكأحسن ما كانت قريش تستثمر المال ، حتى أصبح ذات يوم وانه لمن أغنياء العرب كافة ، ولعله أن يكون أغناهم كافة ، لا يستثنى منهم الا عثمان بن عفان رحمه الله . وربما كان من الممكن أن يقال ان عبد الرحمن بن عوف كان أغنى من بيت مال المسلمين أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن بيت المال في ذلك الوقت يدخر شيئا ، ولم تكن تجبى اليه الضرائب ، ولم يكن يحمل اليه فيء ذو خطر ، وانما كانت أسلاب الغنائم اليسيرة في الغزوات تقسم بين الغزاة ويحفظ خمسها للمرافق

العامة ولوجوه الاحسان والبر . وكانت الصدقات تؤخذ من الاغنياء فتقسم بين الفقراء ولا يصل منها الى المدينة الا اقلها ، فاذا وصل حبس على المصارف التي بينها الله في القرآن الكريم ، فكان بيت المال فقيرا . وليس ادل على فقر بيت المال من الحاح النبي صلى الله عليه وسلم على الاغنياء من الناس في ان يعينوه على بعض غزواته باموالهم : يخرجون له من بعض فضولها او ينزلون له عن بعض اصولها .

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يكره شيئا كما كان يكره اجتماع المال . ولم يكن يشفق على نفسه وعلى اصحابه من شيء كما كان يشفق على نفسه وعلى اصحابه من اجتماع المال وتضخم الثراء ، فنظر ذات يوم الى عبد الرحمن وقال له : « يا ابن عوف ، انك من الاغنياء ، ولن تدخل الجنة الا زحفا ، فاقرض الله يطلق لك قدميك » . قال عبد الرحمن بن عوف : « وما الذي اقرض الله يا رسول الله ؟ » قال : « تبدأ بما امسيت فيه » . قال : « أكله اجمع يا رسول الله ؟ » قال : « نعم ! » فخرج ابن عوف وهو يهم بذلك ، فارسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ان جبريل قال : مر ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ويبدأ بمن يعول ، فانه اذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه .

واحب قبل كل شيء ان يقف القارىء معي عند ما في هذا الحديث من سذاجة رائعة او روعة ساذجة في لفظه وفي معناه وفي قصته كلها ، فرسول الله يشفق على عبد الرحمن من غناه الواسع وماله الكثير ، ويصور هذه الثروة ثقيلة باهظة يحملها صاحبها على كاهله فتمنعه من السعي وتعسر عليه الحركة ، حتى كأنه مقيد لا يستطيع ان يمشي الى الجنة مع الماشين او يعدو اليها مع العادين . وهو لا يشير عليه بان يتخفف من هذا الثقل يلقيه عن كاهله القاء ، وانما يشير عليه بأن يثمر

هذا المال ولا يضيعه ، وذلك بان يقرض الله قرضا حسنا ، فلا يضيع عليه ماله وانما يرد عليه يوم القيامة اضعافا مضاعفة . وعبد الرحمن يسأل عما ينبغي ان يقرض الله من ماله ، فيقال له : ابدأ بما امسيت فيه ؛ اي قم فتصدق بكل ما اجتمع لك من مال حين استقبلت المساء ، واعلم انك حين تفعل ذلك لا تزيد على ان تبتغيه ، والله سيمتحن فيما سيجتمع لك من المال في مستقبل ايامك بمثل ما امتحنت به فيما اجتمع لك من المال في ايامك الماضية .

وقد ثقل الامتحان على عبد الرحمن بعض الثقل ، فهو يسأل النبي : أيكل ما اجتمع لي من المال ؟ فيجيبه النبي : نعم ! وينهض عبد الرحمن مصمما على ان يمضي امر الله ورسوله في هذا المال الذي يحبه والذي انفق في جمعه وتثميره ما انفق من الجهد والوقت ، واحتمل في تثميره ما احتمل من المشقة والعناء . ولا بأس عليه من أن يحب المال ، وانما البأس كل البأس والجناح كل الجناح ان يمنعه حب المال من أن ينفقه ليبر به اليتامى والمساكين وذوي القربى وابناء السبيل . أليس الله قد بين البر للمسلمين بانه ليس التوجه الى المشرق او المغرب وانما هو الايمان بالله وايتاء المال على حبه للذين يحتاجون اليه .

ينهض عبد الرحمن اذن مصمما على ان يمضي في ماله امر الله ورسوله ، ولكن النبي يرسل اليه ان الله ورسوله يرفقان به بعد ان امتحناه ومحصاه ، فيامرانه بان يضيف الضيف ويطعم المسكين ويعطي السائل ويبدأ باهله وعياله ، فان فعل فقد زكى نفسه تزكية ، وطهر ماله تطهيرا .

حزم في الامتحان حتى تستبين العزيمة الصادقة الماضية على الاذعان مهما يكن شاقا ، وعلى التضحية مهما تكن عزيزة ، وعلى الجهد مهما يكن ثقيلا ، فاذا استبانت العزيمة الجازمة

وظهرت النية الصادقة فالله ورسوله يضمنان عنهم بعض ما يحملون من الثقل .

وقد اختار الله نبيه لجواره ، وانقطع خبر السماء ، وحرم المسلمون هذا الوحي الذي كان يصابحهم ويماسيهم ، وأصبح الناس ذات يوم وإذا رجة عنيفة تتجاوب أصداؤها أرجاء المدينة كلها ، وتسأل عائشة أم المؤمنين رضي الله عن هذه الرجة ، فيقال لها : هذه عير عبد الرحمن بن عوف قدمت . فتقول عائشة : أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كأني بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل به مرة ويستقيم أخرى حتى يفلت ولم يكد ! » .

ويبلغ حديث عائشة عبد الرحمن ، وكانت هذه العير خمسمائة راحلة تحمل نفائس العروض من الشام ، فإذا سمع هذا الحديث قال : هي وما تحمله صدقة ! ولم يكتف ببعض ما كانت تحمل ، ولم يكتف بكل ما كانت تحمل ، ولم يكتف بها دون ما كانت تحمل ، وإنما تصدق بها وبأحمالها . ولو قد امتدت الحياة برسول الله واتصل نزول الوحي وتنزلت أخبار السماء الى الأرض ، لكان من الممكن أن يقبل النبي من عبد الرحمن التصدق ببعض تجارته والإبقاء على بعضها الآخر ، ولكن عائشة لم تزد على أن روت ما سمعت من رسول الله ، وأشفق عبد الرحمن من أن يميل به الصراط مرة ويستقيم به أخرى حتى يبلغ الجنة بعد جهد ، وحرص عبد الرحمن على أن يستقيم له الصراط فلا يكون فيه ميل ولا اضطراب حتى يبلغ الجنة في غير تعثر ولا جهد ولا عناء .

وكان عبد الرحمن رحمه الله من أكبر المسلمين تصدقا ، ومن أسخاهم بماله ، ومن أوصلهم الرحم ، ومن أبرهم بالناس ، أنفق حياته كلها مستثمرا ماله متصدقا به ، وكأن تصدقه لا ينقص من ماله ، وإنما يزيد فيه ويضاعفه أضعافا ، كأنما

قضى الله ألا يجزيه من صدقته في الآخرة وحدها ، وألا يضاعف له قرضه في الجنة وحدها ، وإنما يكفل له ثواب الدنيا والآخرة جميعا .

هذا حديث قديم ، ولكن الأيام التي نعيش فيها تجعله جديدا كل الجدة ، وأنا أسوقه الى الذين أتيح لهم من الغنى والثراء مثل ما أتيح لعبد الرحمن أو أكثر مما أتيح لعبد الرحمن وأحب أن يستقر في قلوبهم أن الثراء إن ثقل على عبد الرحمن مع أنه كان من السابقين الأولين ، ومع أنه جاهد بنفسه وماله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع أنه لم ينفق يوما من أيامه إلا تصدق فيه بالكثير — أحب أن يستقر في قلوبهم أن الثراء إن ثقل على عبد الرحمن مع أن النبي قد ضمن له الجنة في نفر من السابقين الأولين ، فهو عليهم أثقل ، لأنهم لم يسبقوا الى الإسلام ، ولم يجاهدوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، ولم يضمن النبي لهم شيئا إلا أنهم إن أحسنوا طاعة الله في أنفسهم وأموالهم لم يضع عليهم مما قدموا شيئا . وإذا خاف النبي على عبد الرحمن ألا يبلغ الجنة إلا زحفا ، وألا يعبر الصراط إلا بعد جهد ، فنحن أجدر أن نخافه على أثريائنا ألا يبلغوا الجنة زاحفين ، وألا يعبروا الصراط جاهدين أو غير جاهدين .

فلينظر أثرياؤنا الى ما حولهم من بؤس وشقاء ووباء وموت ، وليفكروا في أن أموالهم عارية مردودة ، وفي أن الذين يقرضون الله قرضا حسنا يضاعف لهم قرضهم يوم القيامة ، وفي أن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله قد بشروا بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويقال لهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون !

١٠

سخاء

لست ادرى اصح هذه الاخبار كما احب وكما اعتقد ، ام لا تصح كما يحب المتشككون وكما يعتقدون ، وهى سواء صحت أو لم تصح تثير فى نفسى كثيرا من الخواطر ، وتثير فى قلبى كثيرا من العواطف ، وتدفعنى الى كثير من التفكير ، كما تدفعنى الى كثير من الاحلام الحسان العذاب ، التى ان صدقت كانت احسن المنى ، وان لم تصدق كانت قد اتاحت لى ان اعيش ساعات حلوة كما يريد الشاعر القديم ان يقول .

وهذه الاخبار هى التى تتصل بكرم الكرماء ، وجود الاجواد ، وتبرم الاغنياء بما يتاح لهم من الغنى وما يساق اليهم من الثراء ، والحمد لله الذى لم يخلق الناس جميعا حراصا على المال ، بخلاء بما يملكون ، لا ينالون من الغنى حظا الا ليبتغوا حظا اوفر مما نالوا ، ولا يحرزون من الثراء نصيبا الا ليطلبوا اكثر مما ادركوا ، ثم هم على كثرة ما يملكون وكثرة ما يحصلون وكثرة ما يتراكم عندهم من الغنى ، اشبه شىء بالصخرة الصمتة ، ذات القاع البعيد أو التى ليس لها قاع ، فهى لا تجود بشىء مما يستقر فيها من الماء مهما يكثر ومهما يركب بعضه بعضا ، وانما هى مصمتة من جميع جوانبها ، ليس فيها امل لمن يطيف بها الا ان يحطمها تحطيما .

الحمد لله الذى لم يخلق الناس جميعا حرّاصا على هذا النحو من الحرص ، بخلاء الى هذا الحد من البخل ، وانما جعل منهم

بين حين وحين من لا يكره الغنى ، ولكنه على ذلك لا يفنى فيه ولا يتهالك عليه ولا يتخذه غاية ، وانما يتخذه وسيلة ينفع بها نفسه وينفع بها اهله ، وينفع بها ذوى قرابته وذوى مودته ، وينفع بها اكثر عدد ممكن من الناس ، حين يتاح له ان ينفع اكثر عدد ممكن من الناس .

هؤلاء الاجواد الاسخياء عزاء عن الحراص البخلاء ، يلقون فى روعك ان الانسانية ليست شرا كلها ، وان حياة الناس قد تكون صحراء مقفرة مجدبة شديدة العقم ، ولكنها على ذلك لا تخلو من الواحة التى تقوم فيها بين حين وحين ، فتتيح للمسافر الذى عناه السفر واضناه الجهد ، ان يجد فيها من الظل والماء ، ومن الراحة والروح ، ما ينسيه بعض ما احتمل من المشقة ، ويعينه على احتمال ما سيلقاه من الجهد حين يستأنف السعى فى صحرائه تلك المجدبة المقفرة ، ولولا هؤلاء الاجواد الاسخياء لكانت الانسانية خليقة ان تبغضها اشد البغض واعظمه بشاعة ونكرا .

والناس يلتمسون الراحة حيث يجدونها وكما يستطيعون ان يجدوها ، وهم لذلك يلتمسون العزاء حيث يجدونه وكما يستطيعون ان يجدوه : يلتمسونه من حولهم ، فاذا لم يظفروا به ابعدوا فى السعى والتمسوه فى الاطراف النائية والاماكن المتباعدة ، فاذا اعياهم أن يظفروا به فى المعاصرين ، من قريب منهم ومن بعد ، التمسوه فيما مضى من الايام وفيما سلف من العصور . وقد يظن القارىء انى اكثر او ازيد ، ولكنى اؤكد له انى لست من التكثر والتزيد فى شىء ، وانما استقبلت هذه الاحداث التى تحدث ، والنوائب التى تنوب ، وهذا البؤس الذى يأخذ كثرة المصريين من جميع اقطارهم ، ويسعى اليهم من كل وجه ، يقدمهم الموت حتى يسلم بعضهم اليه ، ثم يستأثر بمن بقى منهم فيمضى فى اقدامهم الموت ، متمهلا

حينا ومتمهلا حينا ، وجعلت النظر فيمن حولي من الأشياء ،
والنظر في موقعهم من هذا الشقاء الملم ، والبلاء المقيم ، والهول
الهائل ، والعذاب الشديد ، فلم أر إلا حرصا وبخلا ، وقسوة
في القلوب ، وغلظا في الأكباد ، وجفوة في الطباع ، وكدرا في
الضمائر ، ووجدت قوما ينفقون على كره للإنفاق ، وقوما
آخرين يترددون بين الكرم والبخل ثم يؤثرون البخل بعد طول
التردد وإطالة التفكير ، وقوما آخرين لا ينفقون ولا يترددون
ولا يفكرون ، وإنما يجهلون من حولهم من الناس ، ويجهلون
ما حولهم من البؤس والضنك والضيق والموت ، يضعون
أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ، ويجعلون على أبصارهم
غشاوة حتى لا يروا ، ويجعلون على قلوبهم أكنة وأقفالا حتى
لا يصل إليهم ما يثير فيها شيئا من تضامن أو تعاطف أو رحمة
أو إشفاق .

أولئك وهؤلاء يقبلون على لذاتهم ومنافعهم وآمالهم كما
يتصورونها ، لا يمنعهم أن يلذوا والناس من حولهم بالموت ،
ولا يسوءهم أن ينعموا والناس من حولهم يتجرعون الشقاء
والبؤس والعذاب غصصا ، فهم يرقصون على جثث المواطنين ،
ويسعدون بشقائهم ، ولا يفرقون بين هذه الموسيقى البشعة
المنكرة التي تأتي من شكاة الشاكين وبكاء الباكين وأنين المرضى
وحشرجة المحتضرين ، وهذه الموسيقى الأخرى التي تصل إليهم
من عزف العازفين ونفخ النافخين ورقص الراقصين ، ولا يجدون
بأسا حين يقبلون على كؤوسهم المترعة المصفاة ، أن يكون
مزاجها من هذه الدموع الغزار التي لا ترى ولا تحس لأنها
لا تذرف من أعين الناس وإنما تذرف من أعين مصر كلها .
ودموع الناس قد ترى وقد تحس فيضيق بها الذين يرونها
والذين يحسونها ، ولكن دموع الأوطان والشعوب والأجيال
لا يراها ولا يحسها إلا الذين أتيح لهم شيء من رقة القلوب

وصفاء النفوس ونقاء الضمائر وتهذيب الطباع ، وهؤلاء مع
الأسف قليلون بل هم أقل من القليل .

استقبلت هذا كله ونظرت فيمن حولي من الناس ، لأرى
كيف يرفق بعضهم ببعض ، وكيف يعطف بعضهم على بعض ،
وكيف يسرع الموسرون منهم إلى معونة المعسرين ، فلم أر شيئا
ذا خطر ، وإنما رأيت كرما قليلا وكلاما كثيرا ، وإسرافا في
التفاخر الكاذب ، وتهالكا مع ذلك على اللذة الباطلة والنعيم
السخيف . وما أعلم أن أغنياءنا على كثرة ما يملكون ، وعلى
كثرة ما يغل عليهم ما يملكون ، قد استطاعوا أن يجمعوا لمعونة
المنكوبين بوباء الكوليرا مائة ألف من الجنيهات ، وأحسبهم
ما زالوا بعيدين عن هذا المقدار أشد البعد ، وما أرى أنهم
سيبلغونه أو يقربون منه ، وهم قد أخذوا ينسون الوباء ،
بعد أن أمنوا على أنفسهم — إن جاز للناس أن يأمنوا على
أنفسهم — وبعد أن زعمت لهم وزارة الصحة أن الوباء قد
أوشك أن يزول . لم يقل أحد لنفسه — ولا يرجى أن يقول
أحد منهم لنفسه — إن الوباء قد اختطف من أسر كثيرة
رجالا كانوا يعولونها ، واضطرها إلى إعدام لا سبيل إلى
تصوره فضلا عن وصفه ، وإن من حق هذه الأسر أن تعيش
أولا ، وأن تجد من عطف المواطنين عليها بعض العزاء عما ألم بها
من الخطب ثانيا ، وأن تشعر بأنها أسر كريمة في وطن كريم ثالثا .

لم يخطر لأحد منهم — ولا يرجى أن يخطر لأحد منهم —
شيء من ذلك ، لأنهم مشغولون عن هذه الخواطر بجمع المال
إلى المال ، وضم الثراء إلى الثراء ، وباللذات التي لا يفرغون
من بعضها إلا ليقبلوا على بعضها الآخر ، ولا يستريحون منها
إلا ليستأنفوا العكوف عليها والإمعان فيها ، ثم لم يخطر لأحد
منهم — وليس يرجى أن يخطر لأحد منهم — أن بؤس البائسين
وإعدام المعدمين لا يجر الخزي عليهم بمقدار ما يجر الخزي

على وطنهم كله ، وعلى الذين اتاحت لهم الظروف أن يكونوا عنوانا لهذا الوطن ، يلقون الاجنبى حين يفد على مصر ، ويسعون الى الأجنبى اذا لم يفد على مصر ويسمعون منه — راضين او كارهين — حديث الرياء والمتكويين ، فلا يستحيون لانفسهم ولا يستحيون لوطنهم ، ولا يستحيون لهذا الجيل من المصريين ان يوصم فى اعين الاجنبى بالاثرة المنكرة التى تغض من صاحبها وتجعله خليقا أن يزدرى ويحتقر ، ولا يكرمه من يكرمه الا بمقدار ما يتخذه وسيلة الى تحقيق منافعه وقضاء آرابه .

اى باس على اذا رايت هذا كله وضقت بهذا كله ، فوجدتنى بين اثنتين : اما ان ابغض الحياة والأحياء وانكر الوطن والمواطنين واما ان التمس العزاء حيث استطيع ان التمسه ، وكما استطيع ان التمسه ، لعل الغمرة أن تنجلى ، ولعلى استطيع — بعد وقت قصير او طويل — ان اعود الى هذا الجيل من المصريين المعاصرين ومن اغنيائهم خاصة ، فاقول لهم ، واسمع منهم دون ان اجد فى نفسى هذا الالم الممض ، وهذا الاشمئزاز البغيض .

الى التاريخ اذن والى احاديث القدماء ، فقد ملا المعاصرون قلوبنا يأسا ونفوسنا قنوطا . لنهجرهم ، ولنهاجر فى الزمان اذا لم تتح لنا الهجرة فى المكان ، ولننظر فى اخبار تلك العصور القديمة ، سواء اصحت أم لم تصح ، فهى ان صحت كانت لنا عزاء ، وهى ان لم تصح اتاحت لنا أن نحلم بجيل من الناس لا يكون الرجل فيه عبدا للمال ولا مرقوقا للثروة ، وانما يكون المال فيه عبدا لمالكه ، وتكون الثروة فيه وسيلة الى اعانة المنكوب واغاثة الملهوف ، وانقاذ المحروم ، ثم الى اثارة هذه العاطفة الحلوة التى يجدها الرجل الكريم حين يحس أنه قد اعان منكوبا واغاث ملهوفا وانقذ محروما وبر صديقا ، وتصرف فى ماله ولم يدع ماله يتصرف فيه .

الى التاريخ اذن لننسى العصر الذى نعيش فيه ، والى احاديث القدماء لنسلى عن سيرة المحدثين .

وتستطيع أن تصدقنى أو لا تصدقنى ، فما يعنينى من ذلك شيء ، ولكنك تستطيع ان تقرأ — على كل حال — انى وقفت وقفات طويلة ، طويلة جدا ، عند بعض هذه الاحاديث التى تروى لنا عن القدماء من اصحاب الجود والسخاء ، عند هذه القصة التى تروى عن عثمان — رحمه الله — حين اجدب اهل المدينة ايام ابى بكر حتى ارتفعت الاسعار ، ولم يجد الفقراء واوساط الناس ما ياكلون ، واقبلت فى اثناء ذلك عير لعثمان تحمل من الشام خيرا كثيرا ، فاسرع التجار اليه يريدون ان يشتروا منه بضاعته ليسيروا بها على الناس ، وجعل يساومهم حتى عرضوا عليه ما يعدل اربعة اضعاف اثمانها ، ولكنه ابى ان يبيع الا ان استطاعوا ان يدفعوا اليه عشرة امثال اثمانها ، فلما اظهروا العجز انباهم بان الله قد وعده عشرة امثالها ان تصدق بها ، ثم اعلن اليهم انه يؤثر هذه التجارة على تجارتهم ، ويؤثر ثواب الله على اموالهم ، وان بضاعته هذه صدقة المسلمين !

نعم ! ووقفت وقفات طويلة ، طويلة جدا ، عند رجل آخر من اصحاب النبى ، هو طلحة بن عبد الله رحمه الله ، وقد دخلت عليه امراته فراته مغتما حزينا ، فلما سالته عن ذلك رفيقة به عطوفا عليه ، انباها أن قد جاءه مال كثير ، فهو مهتم لا يدرى ما يصنع به ، فلم تزد امراته على ان قالت له مبتسمة : اقسمه ! قال نعم ! ثم قسم هذا المال بين ذوى قرابته وذوى مودته وذوى الحاجة من المسلمين ، واستقبل بعد ذلك ليله سعيدا ، وكان هذا المال اربعمائة الف درهم !

نعم ! واقف وقفات طويلة ، طويلة جدا ، عند طلحة نفسه حين باع ارضا له وادى اليه ثمنها سبعمائة الف درهم ، فلما

جمع المال في داره ، ففكر غير طويل ثم قال : ان رجلا يمسى وعنده هذا المال لا يدرى ما ادخر له القضاء من امر الله لمغرور ! ثم امر فقسم هذا المال على ذوى قرابته وذوى مودته وذوى الحاجة من المسلمين ، ولم يتم حتى انفقه من آخره .

والغريب ان هذا الانفاق على كثرته وعلى اتصاله لم ينته بطلحة الى الفقر او الى شىء يشبه الفقر ، لأن الله قد وعد الأغنياء اذا انفقوا في سبيل البر مخلصين لا يبتغون رياء ولا شهرة ولا نفاقا ، ان يخلف عليهم ما انفقوا ، وقد قتل يوم الجمل وعرضت ثروته بعد موته لخطوب كثيرة ، ولكن ورثته على رغم ذلك اقتسموا فيما بينهم الالاف مليونا من الدراهم !

فليت اغنياءنا يفكرون في انهم يستطيعون ان ينفقوا من فضول اموالهم مخلصين ، غير منافقين ولا مرائين ، دون ان يرزاهم هذا الانفاق شيئا ذا خطر . وليت اغنياءنا يصدقون وعد الله او يمتحنون هذا الوعد ، ليتهم ينفقون مخلصين غير مرائين ، ليتبينوا ايخلف الله عليهم ما انفقوا ، ولكن هيهات ! ليس الى ذلك من سبيل ، لان اغنياءنا لا يقرأون ، وهم اذا قرأوا لا يؤمنون ، وهم اذا آمنوا لا يغامرون ، واهون عليهم ان يغامروا بالالوف في ناد من اندية الميسر وميدان من ميادين السباق ، من ان يغامروا بالالوف في سبيل من سبل البر ، ليتبينوا ايصدقهم الله ما وعدهم ام لا . والشىء الذى يملأ القلوب غيظا والنفوس كمدا ، هو ان الحكومات ترى من حرص الاغنياء ، وبخلهم ومن تقصيرهم ما ترى ، ثم لا تبيح لنفسها من فرض الضرائب ما يتيح لها ان تعين المنكوب ، وتغيث الملهوف ، وتنقذ المحروب ، واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له .

صدقني ان الخير كل الخير الرجل الحازم الاديب ، ان يفر بقلبه وعقله وضميره من هذا الجيل . فان اعجزه الفرار الى بلاد اخرى ، فلا اقل من ان يفر الى زمان آخر من أزمنة التاريخ .

١١

مصر المريضة

لم اكد اصعد الى السفينة واستقر فيها ، وافرغ من هذه المراسم البغيضة التى لابد منها لكل مسافر مهما يكن الثغر الذى يبحر منه ، حتى علمت بان مصر مريضة ، فلست أتمنى غير حافل به ولا آبه له ولا ملق اليه بالا ، فالنبأ منشور في احدى الصحف الفرنسية التى تصدر في مارسيليا . وما اكثر ما ينشر عن مصر من هذه الانباء التى لا تصور حقا ولا تدل على شىء الا ما يكون في نفس المذيع ابرقوا بها من بغض لمصر او ميل الى الكيد لها والتجنى عليها والاسراف فيما يذاع عنها من انباء السوء !

والصحف الفرنسية في هذه الاشهر الاخيرة قليلة العطف على مصر ، شديدة الضيق بها ، مسرعة الى التحدث عنها بما لا يحب المصريون ، تنتهز لذلك الفرص ان سنحت ، وتخلقها اذا لم تسنح ، وقد كان بيننا وبين قرنسا تلك الخطوب التى احفظتنا على الفرنسيين واقرناهم بهم ، واحفظت علينا الفرنسيين واغرتهم بنا ، فالقارىء المستبصر خليق ان يصطنع كثيرا من الحرص والاناة حين يقرأ انباء مصر في فرنسا ، وحين يقرأ انباء فرنسا في مصر ، ولست اخفى على القارىء انى لم اكد اسمع ما نشر في تلك الصحيفة من ان مصر مريضة ، ومن ان مرضها شىء يشبه ان يكون وباء الكوليرا ، ومن ان الحكومة المصرية قد اخذت تتأهب لمقاومة الوباء ، حتى رفعت كتفى وهززت رأسى وابتسمت ابتسامة ساخرة من هؤلاء الصحفيين

الذين يريدون ان يكيدوا فلا يحسنون الكيد ، وان يكذبوا فلا يحسنون تخير الاكاذيب .

ومضى يوم ويوم والسفينة تجرى الى غايتها ، يعنف بها البحر حينا ويرفق بها حينا آخر ، دون أن يتحدث احد الى احد بهذا النبأ السخيف الذى نشرته صحيفة سخيفة ، ومر بها القارئون مرا سريعا ، ولكننا نمسى ذات يوم واذا اعلان قد الصق فى غير موضع من السفينة ، ينبه فيه المسافرون الى أن الماء العذب سيحجز عنهم ساعات من النهار ، لتستطيع السفينة أن تبلغ بيروت دون أن تأخذ شيئا من ماء مصر ، لأن وباء الكوليرا يمنعها من ذلك .

هنالك لم ترفع الاكتاف ولم تهز الرؤوس ، ولم تبتسم ابتسامات ساخرة ولا جادة ، وانما نظر بعض المسافرين الى بعض فى صمت ، ثم اقبل بعض المسافرين على بعض يتساءلون . اما انا فأعترف بأنى لم ارفع كتفى ولم اهز رأسى ، وانما اطرقت الى الأرض ، وجعلت اتضاءل وانضاءل ، ووددت لو نظر الىّ من حولى من الناس فلم يرونى ، ووددت لو تحدث الىّ من حولى من الناس فلم يسمعوا منى لحديثهم رجع جواب . فلم يكن الشعور الذى وجدته فى ذلك الوقت شعور الخوف ، ولا الشعور بالحاجة الى الاحتياط ، وانما كان شعورا غريبا استطيع الآن أن اقول انه كان مزاجا من الحزن والخزى جميعا .

كان فيه الحزن على هذا البلد الذى كنا نراه خليقا بالسعادة ، والذى افنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنرقى به الى بعض هذه السعادة التى كنا نراه لها اهلا ، ثم ها نحن أولاء نرى الشقاء يصب عليه صبا ، والبلاء يأخذه من جميع اقطاره ، والآلام والنوائب تسعى اليه من كل وجه . نرى البؤس البالس يغمر الكثرة الكثيرة من اهله ، فيلابسهم ملابسة

متصلة لا تقلع عنهم فى ليل ولا نهار ، فهم جائعون عراة جهال ، اشقياء بهذا كله ، ويبلغهم شقاء ان كثيرا منهم يعرفون هذا البؤس الذى هم فيه ، ويعرفون ان من حقهم ان ينعموا ، ويريدون أن يخلصوا من بؤسهم ، وان يحققوا لانفسهم شيئا من نعيم ، ولكنهم لا يبلغون ما يريدون ، ولا يعرفون كيف يبلغون ، ما يريدون ، ولا يجدون من يعينهم على ان يبلغوا ما يريدون .

وفيه الحزن على هذا البلد الذى كنا نراه اهلا للحرية والأمن ، والذى افنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنظفر له ببعض حقه من الحرية والأمن ، ثم ها نحن اولاء ننظر فنراه مغلولا لا يقدر على أن يتحرك ، معقود اللسان لا يقدر على أن ينطق ، معقل القلب لا يقدر على أن يجد ما تجد الشعوب الحرة من الشعور بأيسر كرامة الانسان ، ثم ننظر اليه فنجده من اجل ذلك خائفا يترقب ، يخشى أن يعمل فيغضب سادته ، ويخشى أن يقول فيحفظ قائله ، ويخشى ان يسكت فيسوء به ظن المسيطرون على امره ، فهو حائر بين الحركة والسكون ، وبين الكلام والصمت ، وبين الشعور والجمود .

وفيه الحزن بعد ذلك على هذا البلد الذى كنا نراه اهلا للاستقلال ، والذى افنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنظفر له بحقه فى هذا الاستقلال ، ثم نحن ننظر فاذا هو يرد عن حقه اعنف الرد واقساه ، واذا المستعمرون الذين كانوا يترشونه ويتملقونه فى امس القريب ، قد ائتمروا به وتنكروا له وكادوه كيدا ، لن صور شيئا فانما يصور الجور والظلم والجحود .

وفيه الحزن بعد هذا وذاك لهذا البلد الذى عرفت عنه ضروب الخير فى السياسة والثقافة والاقتصاد ، ومنحه الله

مع ذلك اقليما معتدلا وارضا خصبة وسماء صافية ونهرا يفيض بالنعمة والنعيم ، وكان هذا كله خليقا ان يكفل لاهله حياة مادية محتملة ، ويصرف عن اهله الآفات والعلل والادواء ، ولكنا ننظر فاذا هو قد حرم حتى هذه الحياة ، واذا الآفات والعلل والاوبئة تسعى اليه من اقصى الشرق ومن اقصى الجنوب ، فلا تجد من يردها عنه او يحميه من شرها ، واذا الآفات والعلل والاوبئة تهبط عليه من سمائه الصافية ، وتخرج له من ارضه الخصبة ، وتسعى اليه مع نهره الفياض ، واذا اهله مرتع الآفات والعلل والاوبئة ، تصيب منه ما تشاء كما تشاء ، ومتى تشاء ، وحيث تشاء ! واذا العالم كله يتلقى الانباء في اقل من شهر بأن هذا البلد الذى خلق للعزة ما زال مستذلا ، وبأن هذا البلد الذى خلق للأمن ما زال خائفا ، وبأن هذا البلد الذى خلق للحرية ما زال مستعبدا ، ثم بأن هذا البلد الذى خلق للصحة مريض يفتك وباء الكوليرا بمدنه وقراه ويعبث في مدنه وقراه كما يشاء ، ومتى يشاء ، وحيث يشاء !

ثم في هذا الشعور الذى اطرقت له الى الارض وتضاءلت له وتضاءلت ، شيء عظيم كئيب من الخزى لهذا البلد الذى كنا نظنه قد تجاوز هذا الطور ، طور البلاد الناخرة العتيقة الجاهلة التى تفتك باهلها الاوبئة ، فاذا نحن نراه عرضة للوباء ، بل مرتعا للوباء ، وأى وباء ! وباء الكوليرا الذى كنا نظن انه لن يعود الى مصر بعد ان فعل بها وباهلها الافاعيل في اول هذا القرن .

ليت شعرى ماذا صنعت مصر ! وماذا صنع المصريون ! يقال انهم قد انشأوا في هذا القرن كثيرا من المدارس ومعاهد العلم ، ومضوا في الحضارة الحديثة الى ابعد حد ممكن ، فلهم برلمان كما ان لغيرهم من الامم برلمانات ، ولهم وزارات

منظمة كما ان لغيرهم من الامم المتحضرة وزارات منظمة ، ولهم وزارة قد خصصت لشؤون الصحة ، كما ان لغيرهم وزارة مخصصة لشؤون الصحة ، ولهم عاصمة تتفوق على كثير من عواصم البلاد المتحضرة وتقاس الى عواصم الدول الكبرى ، يعجب بها اهل باريس واهل اوندرة واهل نيويورك اذا الموا بها واقاموا فيها ، وهم بعد هذا كله قد نالوا من الترف ما عرف عن كثير من الامم المتحضرة في هذه الايام ، حتى اصبح ترفهم وترفهم واقبالهم على اللذات مضرب الامثال في اقطار الارض كلها .. كل هذا حق ، وكل هذا شيء تسمعه حتى تزور باريس وغير باريس من المدن الكبرى في اوربا وفي امريكا . كل هذا حق ، ولكن من الحق ايضا ان العالم كله قد القى منذ شهر نبأ مقتضبا ولكنه على ذلك خطير اشد الخطورة ، القى النبأ بأن مصر التى اراد اسماعيل ان يراها جزءا من اوربا قد الم بها وباء الكوليرا واقام فيها ، وانها تريد ان ترده فلا تستطيع له ردا ، وانها تستعين بالعالم المتحضر على وقاية ابنائها من شره وحمايتهم من فتكه البغيض .

وكنت اظن ان هذا الشعور بالخزى مظهر من مظاهر الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس والوطن ، ولكنى لم اكد ابلغ مصر حتى عرفت انى لست مستأثرا من دون المصريين المثقفين بهذا النوع من الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس والوطن ، فكل مصرى مثقف يقدر نفسه ويقدر وطنه ، ويستحضر ما بذل المصريون من الجهود في العصر الحديث ليرقوا بوطنهم الى حيث ينبغى ان يكون من العزة والامن والحرية والصحة في الابدان والقلوب والعقول ، كل مصرى مثقف يجد هذا الشعور المر الذى وجدته ، والذى هو مزاج يأتلف من الحزن الممض والخزى الذى تطأطأ له الرؤوس ، وينظر الىّ من كان حولى من المسافرين ، وفيهم المصرى

والأجنبى ، فيروعهم ما يرون من هذا الوجوم الذى اغرق فيه اغراقا غريبا ، فيظنون بى فى اعماق انفسهم الظنون ، ويسألنى بعضهم محاولا أن يهون على الخطب وان يردنى الى شيء من الامن : ماذا اجد ! فلا ازيد على ان اذكره بانى اعرف وباء الكوليرا ، وبانى قد تحدثت عنه فى بعض ما قرأ لى من كتب ، وبانى قد رأيت هذا الوباء ولما اتجاوز العاشرة ، فكان له فى قلبى وحياتى كلها ابلغ الاثر واعمقه وابغضه . وكان الاطفال حين يكون عميقا بغيضا الى هذا الحد لا يفارقهم مهما تمتد لهم أسباب الحياة .

أصدقونى أم لم يصدقونى ؟ لا ادرى ! ولكنى انا لم أصدق نفسى ، فلم يكن بين هذا الوجوم الذى اغرقت فيه وبين ذكريات الصبا على مرارتها وعلى ما تثير فى النفس من الحسرات صلة قريبة او بعيدة فى ذلك الوقت ، وانما نشأ هذا الوجوم من هذا الشعور الحزين المتحدى الذى يجده المصرى المثقف حين يرى آماله واعماله وجهوده ، وآمال كثير من نظرائه واعمالهم وجهودهم ، تنهار كأنهم لم ينعموا بهذه الآمال ، وكأنهم لم يسعدوا بما حاولوا من الاعمال ، وكأنهم لم يستمتعوا بما بذلوا من الجهود ، وكأنهم لم يتحدثوا الى انفسهم ولم يتحدث بعضهم الى بعض بان آمالهم التى كانت بعيدة قد اخذت تقرب وتقرب حتى توشك ان تتحقق ، وبان اعمالهم الشاقة قد اخذت تؤتى ثمراتها ، وبان جهودهم المتصلة قد اخذت تدنيهم من غاياتهم ، وبانهم سيستطيعون بعد حين ان يقفوا بعد طول السعى ، وان ينظروا فاذا هم لم ينفقوا حياتهم عبثا ، ولم يبذلوا جهودهم فى غير طائل ، وانما تلقوا من آبائهم وطنا ضعيفا مهيضا ذليلا ، فما زالوا به حتى ردوا اليه شيئا من قوة وصحة وعافية ونشاط ، ومضوا به فى طريق العزة والكرامة اشواطا واشواطا ، وهم يستطيعون ان يسلموه الى ابنائهم معلنين

الى انهم قد نهضوا بالحق فاحسنوا النهوض ، وادوا الواجب فاحسنوا الاداء .

كان هذا الشعور بخيبة الأمل وضيعة العمل مصدر هذا الوجوم الذى اغرقت فيه ، ولكنى لم اكن استطيع ان اتحدث بشيء من ذلك الى من كان حولى من الناس ، فهم كانوا مشغولين بانفسهم عن المثقفين المصريين وعن آمالهم واعمالهم وجهودهم ، وعن هذه الفلسفة البائسة التى تغمر قلوبهم فى هذه الأيام السود ، وهم كانوا يتحدثون فيما بينهم بما ينبغى ان يتخذوا من ضروب التحفظ والوان الاحتياط ، وهم على كل حال قد عرفوا انى لا احب ان اسمع لحديث الكوليرا ولا ان اشارك فيه ، فاعفونى من هذا الحديث ، ولكن الانباء لم تعفنى منه ، فقد كانت نشرة السفينة تعلن الينا كل يوم عدد الاصابات وعدد الوفيات واماكن هذه وتلك ، ولم تشرف على الاسكندرية حتى لم يكن لاهل السفينة كلهم حديث الا هذا الوباء ، وكنت اظن انى ساجد اذا بلغت مصر وجوما شاملا وحزنا منتشرا واستخذاء شاملا ، كما كنت اجد فى نفسى من الوجوم والحزن والاستخذاء ، ولكنى ابلغ الاسكندرية والقى من شاء الله ان القى من المصريين ، فاذا حياتهم تجرى على الوتيرة التى الفناها ، واذا الوباء يروعهم ولكنه لا يصرفهم عن انفسهم ولا عن لذاتهم ، واذا انباء السياسة تحزنهم ، ولكنها لا تلهيهم عن انفسهم ولا عن لذاتهم ، واذا انباء الاقتصاد تخيفهم ، ولكنها لا تشغلهم عن انفسهم ولا عن لذاتهم ، وابلغ القاهرة فارى فيها مثل ما رأيت فى الاسكندرية ، وانما الذين تشغلهم انباء الوباء والسياسة والاقتصاد عن انفسهم وعن لذاتهم قلة ضئيلة ليس أيسر من احصائها ، فاما من عدا هذه القلة فعائشون فى حياتهم كما تعودوا ان يعيشوا : السنة طوال وعقول قصار وقلوب قاسية كالحجارة بل اشد قسوة ،

ولا أملك نفسي أن أتلو قول الله عز وجل : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ، ولا أملك نفسي أن أتلو قول الله عز وجل : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

ويقبل العيد فإذا المترفون مقبلون على عيدهم كما أقبل عليهم عيدهم ، لا يشعرون بأن مئات من الأسر في مئات من المدن والقرى قد كانت تنتظر العيد كما كانوا ينتظرونه ، وتشوق إليه أكثر مما كانوا يشوقون إليه ، ولكن العيد أخلفهم موعده ، وأرسل إليهم الموت مائلا عنه ، وأرسل إليهم مع الموت حسرات وعبرات وزفرات ، وأرسل إليهم مع هذا كله شقاء ملحا وبؤسا مقيما . نعم ! ولا يشعرون بأن أمهم مصر مريضة ، وبأن مرضها هو المرض المهلك ، ولكنها لا تترف نعما وإنما تترف أبناءها وبناتها ترفا . لا يشعرون بشيء من ذلك ، أو يشعرون به ولا يلتفتون إليه ، أو يشعرون به ويلتفتون إليه ولكنهم لا يحفلون إلا بأنفسهم ولا يشفقون إلا عليها ، كأنهم يستطيعون أن يعيشوا وينعموا ويستمتعوا بالحياة إذا ضرب الحزن والبؤس والموت أطنابها على هذا البلد البائس الشقي .

هيهات ! هيهات ! إنما ذلك تعليل النفس بالأماني الباطلة ، وخداعها بالآمال الكاذبة ، وإن المصريين بين اثنتين لا ثالثة لهما : فإما أن يمضوا في حياتهم كما ألفوها : لا يحفلون إلا بأنفسهم ولذاتهم ومنافعهم ، وإذن فليثقوا بأنها الكارثة الساحقة الماحقة التي لا تبقي ولا تذر ، وإما أن يستأنفوا حياة جديدة كتلك التي عرفوها في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، قوامها التضامن والتعاون وإلغاء المسافات والأبعاد بين الأقوياء والضعفاء ، وبين

الأغنياء والفقراء ، وبين الأصحاء والمرضى ، والآن فهو التآزر على الخطب حتى يزول ، وعلى الكارثة حتى تنمحي ، وعلى الغمرات حتى ينجلين .

إلى أي الطريقين يريد المترفون من المصريين أن يذهبوا : إلى طريق الموت أم إلى طريق الحياة ؟ سؤال ألقيه على نفسي حين أصبح ، وألقيه على نفسي حين أمسي ، وأتضرع إلى الله بين ذلك أن يجنبني اليأس ، ويعصمني من القنوط ، فـ « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

حديث الشهر

عزيزى القارىء :

اكتب وانا اكتب اليك هذه المرة .. انك قد زدت صفحا وكبرت قيمة .. وعظمت مقاما ..

اكتب اليك .. وانا اشعر انك ممتد من حلب الى اسوان .. فى وطن فسيح تملؤه المحبة .. وارض واسعة يملؤها الخير والسلام ..

اشعر بانى اخرج معك فى طريق مشرق .. لا [illegible] ولا [illegible] ..

اكتب اليك .. وانا احس انى استطيع ان اخرج اليك .. لالتقيك بين قرائك فى اسواق دمشق .. والى قمم بلودان .. وانك ستأتى الى من اللاذقية .. لنخرج معا الى كورنيش الاسكندرية ..

اكتب اليك .. وانا احس انى قد انطلق الى بيتك ارحب واهل اوفر ..

وانى قد بت واياك وسط شعوب العالم .. اقوى ساعدا واعز نفرا ..

اكتب اليك .. وانا احس ان امامنا صرحا شامخا سويا .. وان امامنا مصانع سنشيدها .. ستشيده سواعدنا معا .. وارضا سنحرثها ونفلحها ..

اكتب اليك .. وانا احس ان عدونا قد بات الضال قد انكمش .. وان سلاحه وسهمه قد ارتد ..

اكتب اليك لاقول لك : انى اشعر من حلب الى اسوان الى ان .. ولن ننفس الصعداء حتى نضم وطننا الكبير .. اخوتنا فى بغداد وفى بيروت وفى الحجاز وفى المغرب العربى .. حتى نضم من قرائنا [illegible] .. ستكون لامتنا حضارة تنير العالم .. ونستمتع الحياة [illegible] من [illegible] .. ولنا الفخر والمجد .

يوسف السباعى

محتويات الكتاب

صفحة

مطبعة مصر ٩٤٤/٥٨/٥٠٠ ر.٠ ج.